

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190510

UNIVERSAL
LIBRARY

مَارِيَّاتُ أَنْتَوَانْدِيَّةٍ وَوَلَدَتُهَا

رواية تاريخية

تأليف

السيرة ل. مولياف

مؤلفة رواية « محمد علي » التي نشرها الهلال

تعريب

سليم بن سينا

مطبعة الهلال

مقدمة المعرب

بتاريخه قد حصل الاتفاق والتراضي بين الفريق الاول
حضرات قراء مجلة الهلال - وينوب عنهم مؤقتاً صاحب الهلال -
والفريق الثاني سليم سركيس على ما يأتي :

اولاً - يعرب الفريق الثاني رواية « ماري انتوانيت وولرها »
وينشرها تباعاً في اجزاء مجلة الهلال لهذه السنة
ثانياً - يتعهد الفريق الثاني للفريق الاول أن تكون هذه الرواية
جامعة بين التاريخ بدون ملل والفكاهة والادب والسياسة وأن
تكثرفها الوقائع المدهشة

ثالثاً - يتعهد الفريق الاول أن يقبل على مطالعة هذه الرواية
بعناية وأن يشركوا في مطالعتها زوجاتهم وكرمائهم واخواتهم
« وجميع من حواه بيتهم العامر » لانها تليق بالسيدات وتلد لهن
رابعاً - يتعهد الفريق الاول ان يؤجل حكمه على الرواية وعلى
حسن اختيار معربها الى ان تنتهي بنهاية هذه السنة من مجلة
الهلال . فاما أن يقول للفريق الثاني « زدنا بارك الله فيك » او ان
يقول ما يوافق لفظه ولا توافق كتابته ونشره .

مصر في سبتمبر سنة ١٩١٦

عن الفريق الثاني
سليم سركيس

عن الفريق الاول
صاحب الهلال

الكتاب الاول

الفصل الاول

ملكة سعيدة

تبدأ حكايتنا التاريخية يوم ١٣ اوجسطس سنة ١٧٨٥ يوم اجابت ماري انتوانيت ملكة فرنسا الماس شعبها وزايلت فرسايل وتريانون يوماً واحداً وذهبت الى باريس ليراها الشعب ويرى طفلها الحديث ولتقبل في كاتدرائية نوتردام بركة الاكايروس ودعاء الشعب الباريسي

واحتفل القوم باستقبالها احتفالاً باهراً ودخلت العاصمة في عربة مكشوفة والناس يهتفون لها ويجرون في معيتها الى ان بلغت نوتردام حيث كان ينتظرها كبار رجال الاكايروس وفي مقدمتهم الكردينال البرنس لويس دي روهان

ورافق جلاتها في العربة دوقة بوليناك مربية الاولاد وبجانها الموضع النورمانية بزها الوطني تحمل الطفل لويس شارل دوق نورماندي وجلست بجانب جلاتها كريمها تيريز ونجملها لويس ولي عهد الملك لويس السادس عشر

ولم يرافق الملك جلاتها في هذه الرحلة الى باريس وانما أرادت ماري انتوانيت من رحلتها هذه ان يرى الشعب الباريسي انها نقيت من انزعاجها وان اولاد الملك بل العرش الفرنسي على

أحسن ما يكون من العافية والهناء

وكان الملك لما عزمتم على السفر قد ودعها قائلاً :

— اذهبي يا عزيزتي انتوانيت الى باريس واملئي قلوب شعبي
بهجة وحبوراً وليروا أولادنا واقبلي منهم الشكر على هذه السعادة
التي توفرت لي ولشعبي بواسطتك ولا أرافقك لانني اريد أن
تتمتعى وحدك بعطف الشعب وما يظهرونه لك من الولاء فلا
أشاطرك هذا الهناء ولكنني أعظم ابتهاجي اذا تمتعت وحدك بما
يعدونه لك من إبهة الاستقبال

وعملاً بمشورة الملك ذهبت وحدها وسرها ما لقيته من الاكرام
والاحترام ولما خرجت من الكاتدرائية كانت الساحة غاصة بالجماهير
والشوارع في كل مكان حافلة بالشعب المحتفل . فقد اجتمعت
باريس في تلك النقطة لترى ماري انتوانيت ولم تكن ساعتئذ
المملكة العظيمة بل كانت المرأة الحسنة والام السعيدة لا تلتبس
حماية افضل من حماية ولدها ولا تريد وصيفة شرف افضل من
كريمتها فظهرت في موكبها العائلي بابهة ملكة فرنسا وعظمة
الام الخنون

وكان الجمع رجالاً ونساء يملأون الفضاء دعاءً :

« فلتحي ماري انتوانيت »

« فلتحي الملكة »

« فلتحي المرأة الحسنة التي انجبت لفرنسا أولادها »
وملاً السرور قلب الملكة وأسكرها مشهد الابتهاج والهناف
وراق لها ابتسام الجمهور وضحوكه وهتافه فابرت اسرتها والنهب

قوادها ابتهاجا ولمع بريق الهناء في عينيها ثم استفزها ما رأت فوقفت في العربة وتناولت طفلها من الموضع ورفعته بين يديها ليرى الشعب دليل سعادتها وافتخارها بالعلم الذي انجبت له فرنسا فلما فعلت ذلك انقلب قلبها الجيلة عن رأسها وسقط الوشاح العريض عن ذراعها فأراها الجمهور وابتهج بما رأى وتعاضم سرور الفوم فاندفعوا يهتفون من كل جانب :

« ما أجملها »

« وما أجمل ذراعها »

« وما أجمل عنقها »

فلما سمعت ماري انتوانيت هذا الهتاف صبغ الحياء وجنتها واتبعت الى متاعها الملكي

فتحولت من امرأة مسرورة مبهجة بما حولها الى ملكة جليلة فعادت الى مجلسها وسلمت الطفل الى مرضعه وانزوت في العربة كما ينزوي الطير الخائف ثم سترت ذراعها بالوشاح واصلحت قلبها وقالت للمرضع : - قولي للسائق ان يعجل بالمسير

و بينما المرضع تبلغ السائق أمر سيدتها نحولت الملكة الى ابنتها وقالت باسمه : - ألا محسبن هذا المشهد جميلا اذ يبدي الشعب سروره بمشاهدتنا

أما الاميرة تيريز ولها من العمر يومئذ سبع سنوات فانها هزت رأسها بمجرفة وقالت :

- انني ياوالدي لا استحسن هؤلاء الناس وما هم فيه من القذارة فاسرعت الملكة الى اسكات كريمتها همسا لانها خافت ان يسمع

الرجال ملاحظتها الساذجة وهم قد أحاطوا بالعربة حتى لمسوها نالسا
وقد وقع فعلا ما تخوفت الملكة من وقوعه فقد سمع ملاحظة
الاميرة رجل كان قد اقترب كثيراً حتى وضع يده على باب العربة
فرماها بنظرات الاستياء وقال :

— يلوح لنا ان الاميرة لا تحبنا لقدارتنا وقباحتنا أشكالنا .
على اننا نستطيع ان نكون على ما تريد من الجمال والنظافة لو كان
في وسعنا ان نلبس ملابسها الثمينة وان نركب العربات الفخمة
ولكن قضي علينا ان نعمل الاعمال الشاقة وان نقاسي العناء في
سبيل دفع الضرائب . ولو لم نفعل كل هذا ما استطاع الملك وعائلته
ان يطوفوا العاصمة بمثل هذه الابهة وانما نحن على ما ترى الاميرة
من القذارة لاننا نعمل لاجل الملك

فمالت الملكة بلطف : - ارجو ان تعذر ابنتي فانما هي طفلة
لا تدري ما تقول على انها ستتعلم من والديها ان تحب الشعب
العامل النشيط وتشكر الله من اجل محبته لنا ايها السيد
فاجاب الرجل بخشونة :

— انا لست « سيدا » وانما انا سيمون الاسكاف لا غير
فوضعت الملكة ليرا فرنساوية في يد ابنتها وهمست في اذنها
قائلة « اعطيها للرجل » ثم قالت له :
— اذاً ارجو ان تقبل من ابنتي هذا التذكار في شكل صورة
والدها وان تنفقه في الشرب على صحتنا

فصدعت الاميرة بامر والدها ووضعت الدينار اللامع في اليد
الفخمة الخشنة التي مدها الرجل اليها . على انها لما ارادت ان ترد

يدها اللطيفة الصغيرة كان سيمون قد قبض عليها وقال ضاحكا :
— يا لها من يد صغيرة . ترى ماذا يحل بهذه الاصابع الصغيرة
لو اضطرت الى العمل
فصاحت الاميرة مضطربة :

— مري يا أماء هذا الرجل ان يترك يدي فانه يؤلني
فضحك الاسكاف ضحكا عالياً ولكنه ترك يد الاميرة وقال
هازئاً :

— ان الاميرة تتألم لجرد لمس يد العامل وكان الأولى والأوفق
ان لا ترى العمال ولا تخالطهم وان لا توجد بيننا على الإطلاق
فصاحت الملكة بالسائق بصوت عال وبلهجة الأمر :
— اسرع كثيراً في سيرك

وعملاً بأمر جلالها ساق الرجل جياذ العربة وألهمها ضرباً
فجرت نهب الارض نهباً فتفرقت الجماهير التي كانت قد أحاطت
بالعربة تصغي لحديث الملكة وسيمون

واستعادت الملكة سكينها وابتسامتها وكانت تحيي الهاتين
ومع ان الجماهير احاطت بعربة جلالها وهتفت لها وأعجبت
بجمالها فانها لازمت السكينة والوقار ولم تعد الى تأثرها الاول
واندفاعها السابق

وبما عربة الملكة تغيب بين الجماهير الكثيرة وقف سيمون
الاسكاف يواصلها بنظره ضاحكاً ثم شعر بيسد على ذراعه وقائل
يقول بالهجة الاستهزاء :

— لعلك عشقت هذه المرأة النمساوية يا سيمون ؟

فتحول الى السائل واذا به يرى رجلاً صغير الجسم مشوه القامة محدوب الظهر كبير الرأس قصير العنق ضيق الكتفين . وبلغ من دهشة سيمون لمنظر سائله انه ضحك مقهقهاً . فقال الغريب وقد ضحك ايضاً بملء شذقيه الواسعين :

— انت لا تراني جميلاً بل أنا منكر الوجه قبيح الحلقة

— انت غريب الشكل يا هذا ولولا انني سمعتك تخاطبني باللغة

الفرنساوية ورأيتك منتصباً على قدميك مثل سائر الناس لحسبتك ضفدعاً كالذي قرأت حكايته بالامس

— هو ما تقول ولكنني تنكرت في زي الناس لأرى هذه

المرأة النمساوية واولادها . واني اسالك ثانية هل أحببتها ؟

— لا . انني لم احبها . وعدم حبها ليس خطية في نظر الله .

وان كان ذنباً في نظر الناس عوقب مرتكبه مراراً بالسجن الخفيف .

على انني احب الحرية ولذلك لا أجاهر برأيي لرجل غريب

— اذا كنت تحب الحرية هات يدك اصافها وأشكرك على

هذا البيان يا أخي

— انا لا اعرفك

— ولكنك تحب الحرية وهي واسطة الاخاء بيننا . فجميع

عشاق الحرية اخوان لانهم اولاد ام واحدة لا تعرف فرقا بين

اولادها بل هي تحبهم جميعاً سواء عندها الامير فيهم والاجير .

ولما كانت الحرية أمنا فنحن اخوة

— هذا الكلام جليل ولكن عيبه الوحيد انه غير صحيح .

لانه اذا كنا لا نزعم إخوة فما بال الملك يطوف في عربة مذهبة

بينما انا الاسكاف اجلس على مقعدي الخشي والعرق يتصبب
من جسمي

— ذلك لان الملك ليس من ابناء الحرية وهو يريد ان يستعبد
رعيته وعهد سلطته غير طويل فانه وانصاره يبحثون عن حتفهم
بايديهم والمملكة اصداقاً ينسجون كنفها بايديهم وفي مقدمتهم
دوق دي كويني وهو احد عشاق الملكة

— قال سيمون . هذا غريب وهل للملكة عشاق ؟

— نعم . ولا يخفى عليك ان هذه المساوية لما جاءت الى
فرنسا زوجة لولي العهد يومئذ قال لها دوق دي بيسنفال « ان
المائة الف باريسي الذين جاءوا لاستقبالك يا سيدي هم جميعاً
عشاقك » وهي الآن تريد ان يحبها كل باريسي وعن قريب يأتي
دورك انت ايضاً وتستطيع ان تقبل وتضم يد هذه المساوية
الحسنة

— اذا فاعلم من الآن انني اضم يدها ضمّاً شديداً لا يزول
اثره . ولكنك لم تذكر الا اسم عاشق واحد لها

— اما عاشقها الثاني فهو لورد ارهيمار الاحمق الجميل على ان
الملكة تحب الجمال وهي موصوفة بالميل الى اللهو واللعب والضحك
الدائم واشتهرت حفلاتها الليلية في فرسايل فقد امرت ان
لا تقفل الابواب الحديدية في الحديقة وأُباحَت للاهالي الدخول
والدنو من الملكة والاصغاء للموسيقى . سل ضابط الفرسان الجميل
عن الليلة التي جلست فيها على متعدد من مقاعد الحديقة بين
امراتين جميلتين في ملابسهما البيضاء فقصوا زمنا في الحديث

واللهب انه ليخبرك عن مقدرة ماري انتوانيت في انصرافها الى الضحك واللهو^(١)

فقال سيمون . بودي لو عرفت هذا الضابط لانني اريد ان اسمع كل شيء رديء عن هذه المرأة النمساوية لانني اكرهها وجميع بلاطها

وتمادى محدث سيمون في اغرائه وتحريضه على الملكة ووعدته بيوم يكون العقاب عليها شديداً الى ان قال :

— واعلم ان لنا شركاء في هذه المقاصد فاذا شئت ان تكون واحداً منا احضر هذا المساء اليّ ورافقني الى محل اجتماعنا فاقدمك الى انصارنا

— واين تقيم يا سيدي وما اسمك ؟

— اقيم في اصطبل الكونت دارتواز واسمي جان بول مارات^(٢)

— انت تقيم في اصطبل ؟ لعمرى لم يخطر لي من منظررك انك عربجي او سائس ومن المشاهد المضحكة ان اراك على صهوة جواد

— صدقت يا اخي لا شأن لي مع الخيل ولكن مع الرجال الذين يجتمعون في الاصطبل . انا طبيب بيطري لخيول الكونت دارتواز فاذا وافيتني هذا المساء اجمعك بكثيرين من الذين شفيتهم . والآن يجب ان انصرف الى اخواني . واعلم ان المرأة التي تفتح لك الباب ستقول لك انني غائب فاذا كر لها الكلمات الآتية

(١) الحادثة واقعية كما ورد في مذكرات مدام كامبان مجلد اول

(٢) مارات هذا احد كبار رعماء الثورة النمساوية فيما بعد

« حرية . مساواة . اخاء » تبيح لك الدخول واستودعك الله

وما ابتعد قليلا حتى ادركه سيمون واستوقفه فقال :

— لقد فاتك ان تذكر لي اسم العاشق الثالث من عشاق
المرأة النمساوية لانني اريد ان تكون لدي معلومات كثيرة متى
عدت الى النادي الذي اجتمع فيه مع رفاقي فاروي لهم شيئا كثيراً
عن الملكة واعمالها

فضحك مارات وقال : انا استحسن فكرة وجود ناد يتبادلون
فيه الاحاديث وتروون فيه الروايات المختلفة عما يجري في فرسايل
وسان كلو

— وماذا يجري في سان كلو فانما هو قصر مهجور

— أما الآن فليس مهجوراً لأن الملك لويس اعطاه لزوجته
لتجعل النساء فيه أكثر عدداً منهن في التريانون حيث يستهان
بالاداب والفضائل . نعم ان قصر سان كلو قصر ملوك فرنسا الفخيم
اصبح الآن في حوزة هذه النمساوية الحسنة وبلغ منها انها وضعت
كتابة عند مدخل الحديقة تعين الشروط التي بموجبها يجوز للجسمه
الدخول الى حديقة القصر

— هذا أمر غريب ففي كل حديقة مثل هذه الكتابة تنبيهاً

للناس

— صدقت ولكنها أوامر صادرة من الملك نفسه وأما في
سان كلو فالامر صادر من الملكة . فترى هناك بحروف واضحة
الكتابة الآتية :

« باسم الملكة » ^(١) فما كنفانا بحكم الملك بنا حتى جاءنا حاكم آخر في شخص الملكة ولدينا الآن سلطة بوليس خاضعة للملكة وحدها فكانها دولة مستقلة ضمن دولة . ففي التريانون تجري الاوامر باسم الملكة وهي تنوي تعميم هذه السلطة في الملكة بأسرها — يا لها من خيانة

— وزد على ما تقدم ان الاعوان في سان كلو يلبسون الملابس الرسمية الخاصة بحرس الملكة نفسها فاذا سرت في حدائق القصر لا تحسب نفسك في فرنسا بل كائك في بلاد النمسا ومع ذلك فالامة الشريفة الفرنسية لا تهتم

— لانها لا تعرف شيئاً من كل هذا

— اذاً بين للامة هذه الحقائق

— سأفعل . ولكنك حتى الآن لم تذكري اسم ثالث عشاقها

— هو الميسيو بيسينفال مفتش عموم الحرس السويسري وقائد عموم الجيش وحامل وسام لويس . فانه من مزايا عاشق الملكة انه ينال مكانة عليا . اما في عهد لويس الخامس عشر فقد كان بيسينفال كولونيل في الحرس . اما الآن فقد رفعته الملكة الى منصبه السامي

— لقد فهمت شيئاً كثيراً ولكن ارجو منك يا دكتور مارات ان تريني بيانا هذا المساء

وانصرف سيمون فلبث مارات يتأمل ويسر بنجاح فتنته

(١) De Par la reine وهذه العبارة كانت يومئذ على افواه الجمهور الفرنسي وقد تقوموا على الملكة استشارها بالامر

الفصل الثاني

• دام عادلا يدة

عادت الملكة ماري انتوانيت من باريس الى فرساييل وقد لزمت الصمت في طريقها فلم تفلح دوقة بوليناك في حملها على الحديث او الضحك . فلما وصلت العربية الى ساحة قصر فرساييل ضربت طبول الحرس وأخذ الجنود سلامها فالتفت من زهوها ووقع بصرها على طفلها بايدي المرضع فتناولته وضمته الى صدرها وقالت :

— انك دخلت اول مرة الى باريس يا ولدي الحبيب . وسمعت هتاف الشعب فارجو ان يكون هذا التكريم نصيبك في جميع حياتك وان لا يطرق سمعك مثل كلمات ذلك الرجل الخيف القذر ثم خرجت من العربية كالغزال الشارد والطفل على ذراعيها وحيث الاعوان بابتسامة واسرعت والدوقة تجري وراءها مع سيدات الشرف فدخلت حجرتها وتولت المربيات امر ولي العهد والاميرة

وجرت عادة الملكة متى عادت من سفر ان تصرف سيدات الشرف . وأما هذا اليوم فانها ذهبت ولم تصرفهن فلبثن في الغرفة الكبرى فقالت واحدة منهن للاعوان :

— ماذا نفعل الآن ؟

فقالت ماريكزة مايلى : — يجب ان ننتظر. فربما ذكرتنا جلاتها
وامرت بانصرافنا

فقالت البرنس دي شياي : — واذا لم تصر فنا بقينا كل يومنا
هنا بينما هي تلهو وتلعب في التريانون

فقالت البرنس دي كاستين : — نعم يوجد عيد عام في التريانون
يوم ولا اسهل من ان تنسانا الملكة

واذ ذاك دنت عربة من القصر فقالت ماريكزة مايلى :

— هونوا عليكم فقد جاءنا الفرج من طريق هذه العربة فقد
تقرر أمس في مجلس سري في منزل الكونت دي بروفانس ان تحضر
مدام عادللايدة للمرة الاخيرة ومحاول ارجاع الملكة الى صوابها
وتفهمها ما يليق بملكة فرنسا وما لا يليق بها وها هي قد اقبلت
ووصلت العربة تقل البرنس عادللايدة كريمة لويس الخامس
عشر وعمة لويس السادس عشر وهي متقدمة في السن . فتركت
العربة بين احتفال الاعوان وصعدت على السلم متثاقلة يتقدمها
البشرافي فلما وصل الى باب المقصورة الاولى المؤدية الى مقاصير
الملكة قرع الباب بعصاه ونادى :

— مدام عادللايدة

فاعاد الحاجب هذا الاسم وفتح باب المقصورة الثانية وتناقلا
الحجاب الى ان وصلت الى مقصورة الملكة

اما ماري انتوانيت فانها اظهرت كدرها قليلا لان هذه الزيارة
اعترضت محادثتها الودادية مع صديقتها دوقة بولينك فانطرحت
لى صدر الدوقة وقبلتها مراراً وقالت :

— اودعك يا جوليا العزيزة . فقد جاءت مدام عادللايدة وجاء الكدر ولكن تأهي ايها العزيزة فحالما تنصرف مدام عادللايدة نركب الى تريانون سووية . ستبقى الملكة هنا نصف ساعة ثم تستعريض ما فقدته بمرافعة العزيزة جوليا الى التريانون حيث تقضي بقية النهار في سرور وابتهاج مع زوجها واصدقائها

وحالما انصرفت جوليا دخلت مدام عادللايدة بين وصيفتين وقتتا على جانبي الباب واعلنتا اسمها دفعة واحدة ومن وراء الاميرة وصيفاتها ورئيس تشريفاتها وحجباها . ورأت مدام عادللايدة ان الملكة لبثت في منتصف المقصورة فلم تتقدم اليها لاستقبالها فاستاءت ولم تجلس بل قالت :

— ربما كان مجيئي الى جلالتك في غير الوقت الموافق ولعل الملكة كانت تنوى الذهاب الى تريانون حيث بلغني ان الملكة تقدمها الى هناك

فحالت الملكة باسمة : — وهل بلغ سموك هذا ؟ ان مدام عادللايدة حادة السمع اذ تبلغها مثل هذه الامور الطفيفة بينما انا على شبابي لم اسمع شيئا عن قرب محي سموك لذلك ترياني في دهشة و سرور اذ يزورني عمي الكريمة زيارة غير منتظرة

— من تسمحين لي جلالتك بمقابلة
لكل سرور وارتياح ولسموك الخيار في أن تكون المقابلة سرية او علنية

اس من جلالتك مقابلة خصوصية
فدعوات الملكة الى وصيفاتها وقالت :

— ايها السيدات . هذه مقابلة خصوصية . ثم قالت
للحجاب والاعوان :

— ايها السادة . بعد نصف ساعة اريد ان تكون عرقي
جاهزة لاذهب الى التريانون

فانسحب الجميع واقتل الباب ولبثت الملكة والاميرة وحدهما
فاشارت الملكة الى مجلس وجلست وقالت :

— دعينا نجلس بعد امرك . ان لديك كلاماً وأنا اسمع
— بودي ان لا تسمعي لي كما في فقط بل ان تفهميها وتعملي بموجبها
— سأفعل اذا كان كلامك يستحق ذلك

— ان كلامي جدير باهتمامك . لانني اريد ما فيه سلامة عائلتنا
وحياتها وشرفها . واسمحي لي أولاً ان ابلغ جلالتك رسالة عهد بها
الي . فان اخي الشريفة الورعة مدام لويز قد اعطتني هذه الرسالة
الى جلالتك وباسمها ألتبس من جلالتك قبولها وقراءتها حالا
بمحضوري

واخرجت رسالة محتومة فقديتها الى الملكة
اما ماري انتوانيت فلم تمد يدها ولكنها هزت رأسها علامة
الرفض وقالت :

— ارجوك العفو يا سمو الاميرة ولكنني لا اقدر ان اقبل هذه
الرسالة المرسلة من رئيسة دير الكرملين في سان دانيس لانك تعلمين
جيداً انها لما أرسلت اليّ رسالة مثلها مع سموك منذ سنوات قرأتها
يومئذ وجاهرت انني لن اقبل ولن اقرأ رسائلها . فتكرمي بارجاع
رسالتها اليها

فقلت مدام عادلايدة : — جلالتك تعلمين ان عمك هذا
اهانة موجهة الى اميرة بيت الملك الفرنساوي

— الذي اعلمه ان الرسالة الاولى التي جاءني من مدام لويز
كانت اهانة وجهها الاميرة الى ملكة فرنسا . وسأصون مقامي
الملكي من تكرار تلك الاهانة . ولا ريب ان رسالتها اليوم لا تختلف
عن رسالتها الماضية . ففي رسالتها الاولى تهم قاضية عليّ جهاراً
وفيهام مشورات لا معنى لها الا الوقعة (١) فما الذي حوته رسالتها الآن
فقلت مدام عادلايدة غاضبة : — ربما كان فيها ما كان في
الرسالة الاولى لان الاسباب نفسها لا تزال باقية لسوء الحظ فلا
غربة ان تكون النتائج نفسها :

— ارى بسهولة ان سموك عارفة بمضمون الرسالة ولذلك
تلتمسين لي العذر في عدم قراءتها . ولا ريب ان الراهبة التقية
كتبها بحضورك في صومعتها الطاهرة فتركت مؤقتاً صلواتها لأجل
الملك المرحوم لتشتغل قليلاً بالامور الدنيوية ولتصني للوشايات
التي وجهها الى ملكة فرنسا مدام عادلايدة او الكونت دي
بروفانس او الكردينال دي روهان او سواهم من اعدائي

— وشايات ؟ بودي لو كان الامر قاصراً على الوشايات وان
جميع هذه الامور التي تقلقنا وقبعة في غير محلها بدلا من ان تكون
حقائق راهنة ^{١٨٨٣}

— وهل تفضلين سموك ببلاغي تلك الحقائق ؟

— تلك الحقائق مختلفة متعددة حتى لقد يتعذر التفريق بينها .

ان كل يوم بل كل ساعة من حياة جلالتك تأتي بحقائق جديدة

— ما كنت اظن ان سموك تعتنين بي الى هذا الحد

— ولا كنت انا اظن ايضاً ان خفتك تجرح على الدوام

القوانين والعادات المقدسة المرعية . فأنتِ تفعلين ذلك وتستهمنين بكل امر مرعي شأن الطفل الذي يلعب بالنار وهو يجهل ان الالهيب قد يدركه فيحرقه . ولقد جئت الآن لا نذك مرة أخرى والمرة الاخيرة

— احمده لله انكِ تفعلين ذلك للمرة الاخيرة

— اتوسل اليك ايها الملكة من اجل نفسك وزوجك

واولادك ان تعدي عن منهجك هذا . سيري في خطة جديدة . اركي الطريق المحفوفة بالخطر التي تفتح امامك ابواب الهلاك الاكيد

فتحوّن وجه الملكة من السماحة الى الانقباض وتلاشت

ابتسامتها ورفعت رأسها وقالت بأنة الملك :

— لقد كنت حتى الآن اقابل تعريضك ومغامرك بابتسامة

وعدم مبالاة ناشئة عن البراءة ولبثت احترم سنك واذكر نظرات خشوة التي ترمي بها الشيخوخة الشباب . على ان كلامك يحملي على اتخاذ خطة الاهتمام لاني ذكرت اسم زوجي واولادي فلمست قلبي . والآن هاتي ما لديك من الهم التي ترميني بها

— اشير الى خفتك المتناهية . الى قصر بصرك المغيب . الى

ملاهيك الضارة . الى اسرافك وحبك للازياء وتعرضك للسياسة وملاهيك وولائمك

فكانت ماري انتروايت تعترض كلمات مدام عادلا يرد ضاحكة
مقهقهة . الامر الذي زاد غضب الاميرة وغيظها فقالت :
— نعم انك خفيفة رعناء لانيك تحسبين حياة المالكة يوماً
كاملاً لا تغرب شمسها ولا عمل لها فيه الا ان تغني وتضحك .
وانت قصيرة البصر لانك لا تعلمين ان ازهار هذا اليوم الصيفي
التي تفرحين بها انما تزهر على حافة هاوية تسقطين فيها بعد رقصك
المعيب . وانت تلهين بمسرات واهية لا قيمة لها بدلاً من ان
تفعل ما يليق بملكة فرنسا فتتضمن حيالك في العزلة والتعب
والاعمال الخيرية . انت مسرفة لانك تبذلين مال فرنسا لانصارك .
لعائلة بولينياك التي حسبوا امها تتناول ٢٠ في المئة من دخل
المملكة وتسمحين لجماعتك ان بحشدوا الاموال . وانت عاشقة
الازياء ونحطين من كرامتك بتمضية ساعات مع صانعة برايط
فقيرة . وتسمحين لرجل ان يرتب شعرك ثم يذهب ويضفر شعور
سائر النساء تقليداً لشعر ملكة فرنسا . وبلغ من امرك ان الازياء
صارت تسمى باسم ملكة فرنسا واصبحت نساء فرنسا الشريفات
في حيرة من امر بنائهن اللواتي تمكن من فكرة الازياء والخفة
مكتسبة من خفة الملكة وازياءها فلا هم لها وركن الفضائل
والمحامد . وقد اظهرت لك بالدليل الذي لا يمكنك دفعه ان هذا
السقوط في الاخلاق الناشئ عن حب الزينة والازياء سببه انت
دون سواك فضلاً عن تهتكك وتهورك وقيامك باعمال منكرة نجرين
اليها زوجك ملك فرنسا وابن الكنيسة الاكبر
فقالت الملكة : — ما معنى سموك والى اي الملاهي تشيرين ؟

— اشير الى الحفلات التي تقام في تريانون وفيها ما يعارض كل ادب صحيح ويخالف كل مألوف والى المساخر التي تتحول فيها الملكية الى راعية غنم وتبيح لسيدات بلاطها ان يفعلن فعلها مع انه كان يجب عليهن ان لا يظهرن امامها الا بالادب الكامل والوقار التام . اشير الى هذه السخافات التي لما افتتن الملك بمحاسن زوجته تناسى مقامه فاشترك فيها واجاز لنفسه الاشتراك في المساخر والملابس الغريبة . وهذه الملكية التي تملأ بتمهقتهما وضحكها العالي حدائق تريانون والتي من حين الى آخر تتهيج بتقليد خوار البتر ومعاء الخراف — هذه الملكية لا تلبث ان تدخل ميادين السياسة وباليد التي زينت شعرها زينة مستغربة تتداخل في سياسة المملكة وتعترض سير الاعمال وتنزل الوزراء الامناء وتستبدلهم باصدقائها وتجعل الملك آلة لتحقيق ارادتها فقط
فنهضت الملكية غاضبة وقالت :

— لقد تجاوزت الحد ايها السيدة . بل تعديت الحد الذي يجب ان يقف عنده كل انسان حتى اميرات البيت المالك عند مخاطبة ملكتهم وولية أمورهم . لقد سمحت لك ان تنتقدي حياتي الخارجية ومسراني وملابسي ولكنتني لا ابيح لك التعرض لحياتي الداخلية وعلاقاتي مع زوجي وشرفي الشخصي . لقد اشرت الى اخصائي فانا اطلب منك ان تذكرني اسماءهم . واذا قدرت ان تثبتي ميلي وعطفي الى واحد منهم الا العطف الذي يجوز ان تبديه الملكية لاتباعها ولأحد رعاياها الامناء اذ ذاك ارجو ان تعطي اسم ذلك الرجل الى الملك وان يجري جلالته التحقيق التام بشأنه .

نعم لي اصدقاء والحمد لله وهم يقدرون صداقتي قدرها ولا يتأخرون كل ساعة عن بذل نفوسهم وحياتهم فدى للملكتهم . ولي انصار وخدم واعوان ولكن ليس بينهم من يقول ان ماري انتوانيت عاشقة فقد كان الملك زوجي عاشقي الوحيد واسأل الله ان يبقى كذلك الى الابد . على ان عشق الملك لي هو الذنب الذي لا تغتفره لي الاميرات والكونت دي بروفانس وجميع حزب البلاط القديم . فقد وفقت الى الحصول على محبة زوجي ورغماً عن جميع الوشايات والفتن تنازل جلالته فرمق برضاء المرأة الشابة المسكينة الواقعة بجانبه وحيدة لا نصير لها وكانوا قد غرسوا في ذهنه انها غير جديرة بحبته فرأى انها ليست كما زعموا من السذاجة والبشاعة والجهل وبدأ يراقبها ويميل اليها ثم نسي والحمد لله انها من اصل نساوي وان سياسة سلفه اضطرته الى قبولها زوجة ثم احبها واقتبلت ماري انتوانيت محبة الملك هبة من الله وسعادة حياتها . اجل . يا سيدي . اقول مفخرة مسرورة ان الملك يحبني ويثق بي ولذلك نالت زوجته مكانة لم تملكها عماته اشريقات وانا التي يكرم ويحب وقد جعلني موضع سره ومشورته . وهذا ذنب الذي لا يغتفر . فقد وفقت الى نزع نفوذ خصومي على زوجي . لقد انقضى زمن فيه كانت مدام عادلايدة تسترعي اذن الملك متى جاءته غاضبة تشكو مني واتهمني بهم كثيرة لا صحة لها الا من حيث انني تساهلت في بعض التقاليد القديمة . ومضى زمن استطاع فيه الكونت دي لامورك ان يشكو الملكة الى الملك لانها خرجت ومعيتها صباحاً باكراً الى حدائق فرسايلى لترى شروق الشمس .

الملك يحبني وزال نفوذ مدام عادلأيدة فما هي بعد الآن مستشار زوجي السياسي . فالوزراء لا يعينون في مناصبهم برضاها وارادتها وامور الوزارة تقضي بغير استشارتها . انا اعلم انك جعلت هذه الحالة في عداد جرائمك وان الكونت دي بروفانس يكتب المصالحات الشائنة ضد ملكه وقرينته ويوزع مطاعنه في طول البلاد وعرضها وانه يرحب في منزله بخصوم الملكة واعداؤها وانهم يطعنون علي فلا يؤمنهم ولا يردعهم وانهم يصنعون الاسلحة التي بحاربوني بها هناك . ولكن احذروا ان تطعنكم هذه الاسلحة نفسها . فلما انتم توقعون المملكة في خطر وتنفقون العرش لانكم تعلمون الشعب ان يسميهم بكل شيء مقدس وان لا كرامة للعرش وان في وسعهم توجيه كل طعن ومحقير الى لابسى باج القديس لويس على رؤوسهم . ولكنكم انتم عمات الملك واخوته وجميع انصارهم والذين يتبششون من ورائكم انتم دون سواكم تهددون العرش بالزوال لانكم تناسبتم ان المرأة الاجنبية — او كما تقولون النمساوية — انما هي ملكة فرنسا سيدتكم ووليلة امورك وما انتم الا افراد رعيتهما . انتم خونة كثرتم جرائمكم

فصاحت مدام عادلأيدة : ما هذه اللهجة . . .
فاجابت الملكة بحدة وغضب : هذه لهجة امرأة رداً على الواشي . لهجة ملكة في مخاطبة متمرد من رعاياها . فاياك مقاطعتي او الرد على كلامي مرة أخرى . انك جئت الى قصر سيدتك الملكة لرميها بالتهمة وهي قد اجابت كما يليق بمقامها فلم يبق لك ما تقولين . قد التمت مقابلي بمقابلة خصوصية مدة نصف ساعة

وقد انتضى الوقت . ففع السلامة . ان عريتي تنتظرنى . وانا
ذاهبة الى تريانون . على اننى سأكرم عن الملك هذه المطاعن
الجديدة وأعدك ان انسأها واغتفرها لك
وبعد ان حنت رأسها قليلا تحولات وانصرفت بمظمة وأتفة
فاتبعها مدام عادلايدة بنظرات الحقد ورفعت يدها مهددة نحو
الذي انصرفت منه الملكة وقالت :

— سأتتم من هذه المرأة الوقحة التي نجرات على تهديدي
ومخالفتي والتي تدعو نفسها ملكتي . هذه النمساوية تكون ملكة
على اميرة فرنساوية من العائلة الملكية ؛ الا اننا سنوقفها عند
حدودها لتعلم منزلها من فرنسا . وسنعيدها الى النمسا
اما الملكة فلما سارت الى مقصورتها انطرحت على ديوانها
وبكت وهي تقول الكبيرة وصيفاتها :

— آه يا كامبان . ما الذي اضطرت الى سماعه ؛ و باي كلمات
تجراون على مخاطبة ملكة فرنسا
فاسرعت مدام كامبان الى سيدنها وجثت امامها وقبلت يدها
وقالت :

— جلالتك نبكين ؛ وهل سمحت للاميرة ان تبتهج اذ ترى
انها حملتك على البكاء ؛
فنهضت الملكة وقالت :

— لا . لا . لا . اننى لا ابيح لها ذلك . سأفرح وابتهج واضحك
لقد ارادت ان تجرحني ولكنتني اصبتها بجراح لا تشفى فافهمتها
صريحاً اننى ملكة فرنسا وانها واحدة من رعيتي وانها متى

وجهت هذه المطاعن الى الملكة فقد اصبحت خائنة مجرمة

فصاحت مدام كامبان مذعورة :

— ان الاميرة لن تغفر هذه الالهانة وقد صارت عدوة لك

فلا تتأخر عن الانتقام بأية الوسائل

— فلتعمل . انني لا اخافها ولا اخاف حز بها . لا اني في حرز

حريز من محبة زوجي وراحة ضميري . انهم لا يستطيعون الا

اتهامي بامور لا تلبث ان يظهر كذبها واختلاقها فلا يثق باقوالهم احد

فتنهدت مدام كامبان وقالت : ان جلالتك لا تعرفين الناس

وما يأبونه من الشر . وتمتددين ان الصالح لا يكون جبانا وان

الشرير لا يكون متهوراً . ولا تعلمين ان في وسع الشرير تهيج

لرأي العام وافساده فلا يجد الصالح شجاعة كافية للمقاومة الفساد

والرأي العام قوة هائلة فتتهم وتحكم وتماقب دفعة واحدة في شخص

واحد فمن استهان به يخلق لنفسه خصما اقوى من جيش عرمرم

— ولكنني لا اخاف هذا الخصم بل يجب ان يخافني ويرتجف

امامي كما يخاف الاسد نظرة الفتاة لا اني طاهرة بريئة . والآن دعينا

من كل هذا فالشمس مشرقة بجمالها . والقوم ينتظرونني في

الترانون . تعالي يا كمبان تعالي . ان الملكة تتجول الى زوجة سعيدة

واسرعت الملكة الى مقصورة زينها ومام كامبان تتبعها وهي

تهزراسها ثم حاولت الملكة ان تحل بيدها مشدها نخلصاً من ثوبها

الرسمي وقالت وهي تنزع ثوبها :

— بعدا لهذه الملابس الرسمية

ووقفت بلا بسها البيضاء عارية الكتف والذراعين وقالت :

— هاتي ثوبي الابيض ووشاحي القماشي
فقال مدام كامبان : — وهل تخرجين جلالتك بهذه
الملابس البسيطة ؟

— نعم فانتني ذاهبة الى التريانون . الى نزهتي الجميلة واعلمي ان
الملك وقد وعد ان يقضي مساء كل يوم من اسبوع كامل في التريانون
فتتمتع بالطبيعة والعزلة . ففي اسبوع كامل يكون الملك ملكا قبل
الظهر ويصير بعد الظهر طحاناً في قرية تريانون ولذلك يجب ان
اذهب الى هناك بهذه الثياب البسيطة فهاتي ثوبي الابيض

— عفواً يا ذات الجلالة يجب اولا ان ادعو وصيفات الملابس
وتحولت الى باب غرفة النوم فقالت الملكة : لاي شيء كل
هذه المظاهرات ألا اقدر ان اخلص من قيود الرسميات ؟ ولماذا
لا تساعديني انت على لبس هذا الثوب

— مولاتي . انا امرأة مسكينة لا حول لي ولا تقوذ واخاف
عداء الاعداء . ان وصيفات ملابس جلالتك يحقدن على اذا
تعديت على حقوقهن وابعدتهن عن شخص جلالتك . فمن حقوقهن
وحدهن ان يضعن الثياب عليك وان يضعن النعل في قدميك
فالتمس منك ان تسمحني بدخولهن

— لا بأس . سأحتمل هذه القيود هنا في فرسايل ثم اصير
حرة في التريانون

وبعد ربع ساعة خرجت الملكة من مقصورتها بثوبها البسيط
واسرعت الى غرفة الجلوس حيث كانت تنتظرها دوقة بولونياك في
مثل ثوب الملكة بساطة وركبتا العربية الى تريانون

الفصل الثالث

تريانون

حققت جياذ العربة آمال مارى انتوانيت فوصلت الى التريانون على جناح السرعة ففكرت الملكة من عربنها كأنها فتاة لا تعرف شيئاً من هموم الحياة ودخلت من الباب الصغير وقد اخذت ذراع صديقها دوق بولنيك تريد ان تسير بها الى عطفة صغيره من الحديقة ثم رأت الياور الخاضى بها ينتظر أوامرها لمخاطبته باللغة النمساوية لغة قومها ووطبها الأصلي قائلة :

— لا تتبعني اليوم فأنت حر طليق كل هذا النهار كما انا حرة ايضاً . فاذا أنت لقيت جلالة الملك اخبره انني ذاهبة الى القصر الصغير واذا شاء جلالاته فليمنتظرنى في قريتي الصغيرة عند المطحنة ثم تحولت الى دوق بولنيك وجرتها بعنف قائلة :

— والآن سيري بنا ايها الزنزة جوليا ولنفرح ونبتهيج . فالحمد لله لست ملكة الآن . بل انا مثل سائر الأفراد ولهذا سرني الجيء من الباب الصغير فلا سبيل الى الجنة الا من الباب الضيق وانا الآن ادخل الجنة . ألا ترين ان الاشجار والأزهار والغابه وكل شيء هنا حر بل ان السماء ذات لون آخر ترمقنا بعين زرقاء لامعة كأنها عين الله ؟

— ذلك لأنك تنظرين هذه الأشياء بعينيك يا ذات الحلالة
— ذات الجلالة ؟ اذا أنت لا تحبينني وقد استعليت هذا في

مخاطبتي هذا اللتب . لقد كان لك عذر في فرسايل واما هنا فما عذرک ؟ ولا جواسيس هنا ولا رقباء
— عفواً ومعدرة فلن ازعج صديقتي في سرورها فهل تغفرين لي يا ماري ؟

و بلغ من ابتهاج الملكة انها ارادت الوصول الى القصر الصغير ركضاً فراهننت جوليا على انها تسبقها وبدأت تركضان فكان سبق للملكة حتى اذا اقتربتا من القصر وقفت الملكة وقالت لجوليا :
— هاتي الرهان دليل حبك فقد اتفقنا ان تعطيني قبلة اذا سبقتك

-- لا افعل ذلك هنا يا ماري ان ابواب الصالون مفتوحة واعوانك قد اجتمعوا هناك فاذا هم رأوا عنايتك الخاصة بي تولاهم الحسد

— فليعلموا وسيعلم الجميع ان جوليا بولينياك صديقتي الحبيبة وانها بعد زوجي واولادي اعز الناس اليّ

ثم ضمتها الى صدرها وقبلتها ودخلت قاعة القصر الصغيرة حيث اجتمع الأعيان والأصدقاء رجالاً ونساء . فلما دخلت عليهم الملكة ولكن جاءتهم ماري انتوانيت الحسنة الساذجة فحيّتهم بحني راسها ولبث الجميع في اماكنهم وملاهيهم لأن الملكة كانت قد امرت برفع الكلفة في تريون وان لا يقفوا عند دخولها ولا يترك الرجال ملاهيهم والنساء اشغالهن ولذلك بقي الكونت بيسينغال والكونت اوهمار يلعبان الشطرنج فلما دنث منهما الملكة نهض الكونت دي فودوي عن البيانو وبعد محادثة قصيرة قالت الملكة :

— والآن ايها الضيوف الكرام نذهب بعد موافقتكم الى
مقابلة الملك وليختر كل واحد من الرجال سيدة يسير معها لأننا
لا نريد ان نمشي في موكب بل في طرق مختلفة
فأسرع جميع الرجال الى الملكة يريد كل واحد منهم ان يتشرف
بمرافقتها فشكرتهم بابتسامة وتناولت ذراع اكبرهم سنأ البارون
دي بسينغال وقالت :

— سر بنا ايها البارون . فاني اعرف طريقاً يجهلها الجميع
فنصل الى الملك قبلهم

وانصرفا من باب الشرفة المؤدي الى الحديقة فقالت الملكة :
— نسير في الحديقة الانجليزية فنصل قبلهم جميعاً . . . ولكن
انظر ايها البارون من القادم علينا
— هو دوق دي فروناك

— وا اسفاه انه قادم لوضع قواعد جديدة تزعجنا في لهونا
— وهل تأمرين ان اصرفه

— لا . لا . انه من اعدائي ويجب ان نزاعى الاعداء
واذ ذاك اقترب الدوق دي فروناك فقابلت تحيته بلطف وقالت
— هل يريد مدير المراسم الملكية ان يخاطبني ؟

— اتيت لألتبس ان تسمح لي بمقابلة جلالتك
— لك ذلك . وهي كما ترى مقابلة رسمية لأننا في قاعة عرش

الله تعالى تظلمنا التبة الزرقاء فهات ما لديك

— جئت لأقدم شكواي

فقالت باسمه : — وشكواك مني ؟

— جئت لأقدم شكوى واطالب بحق . فقد تفضل جلالة الملك وجعلتني المدير العام للمراسح الملكية واولاني السلطة التامة ، فقالت الملكة ببرود : — وما علاقة هذا بي ! قد تعين منصبك فعليك ان تتولاه باجتهاد

— ولكن يوجد مرشح يا جلالة الملكة يريد ان يكون حراً بعيداً عن سلطتي وبمتمضي واجبات وظيفتي يجب ان اطلب بالحاح ان يسلم هذا المرشح الى عهدي

— لا افهم ما تقول . واي مرشح تريد

— اريد المرشح الموجود هنا في تريانون . فهنا تتمثل روايات هزلية وجديّة وهنا مرشح مثل سائر المراسح دائم ومرتب ولذلك اطلب ان يسلم امره الي لأن الملك جعلني مدير المراسح الملكية العام — ولكن فأتك ايها الدوق ان مرشح التريانون ليس من

مراسح جلالة الملك . انه لي والتريانون مملكتي انا . اما قرأت الشعار المكتوب عند مدخل التريانون ؟ ومآله ان الملكة هي الأمرة الناهية هنا ؟ ألا تعلم ان الملك وهبني هذه البتعة لأمتع فيها بحريتي الكاملة حيث تكون ملكة فرنسا صاحبه الأمر والنهي

— عفواً با ذات الجلالة ما كنت لأتصور انه يوجد مكان في جميع فرنسا لا يكون الملك صاحب الامر والنهي فيه ولا يصدع بأوامره

— إذاً لقد اخطا ظنك . ففي تريانون انا الملك وأوامري

لا يعلى عليها

— هذا لا يمنع ان تكون اوامر جلالة الملك مساوية لأوامرك

في نفوذها . بل اذا شاءت ملكة فرنسا مخالفة تلك القوانين فأن
غير جلالها لا يتجاسرون على الاقتداء بها . لأهم ايما كانوا
لا يزالون رعية الملك ولذلك فانا في تريانون نفسها عبد خاضع طائع
للملك واوامره وواجباتي تجبرني على العمل بها

— اعلم يا حضرة الدوق انك غير مقيّد بالحجيء الى التريانون
وانا ابيح لك عدم الحجيء الى هنا واذ ذاك لا تضطر الى معارضة
اوامر الملك

— ولكن يا مولاني يوجد مرسح في المتريانون
— هو كما تقول ولكنني انا مالكة فرنسا واميرات العائلة
المالكة والضيوف الذين ادعواهم نقوم بنفقات مرسحنا . . فاعلم
للمرة الأخيرة انك لا تملك السيطرة عليه متى كنا نحن الذين نمثل
فيه . وقد افهمتك مراراً حالي في التريانون فليس لدي بلاط ولا
معية بل انا شخص عادي صاحبة املاك وما ادبره من الملاهي
لنفسى ولا صدقائي لن يسيطر عليه سواي (١)
— يا ذات الجمالة ، ان المسيطر عليك ليس الشخص الواحد

بل هو الرأي العام وانا اعلم انه في جانبي
ثم انحنى وتحول فانصرف بدون ان ينتظر اشارة الانصراف
من المالكة . اما جلالتها فانها استأنفت المسير مع البارون بيسينفال
وحدثته بما جرى لها في باريس لا انها تخاف شراً من الحالة الحاضرة
خصوصاً بعد زيارة مدام عادلايدة الى ان قالت :

(١) كلمات المالكة « تاريخ ماري انتوانيت » تأليف « جونكور »

— صدقني يا بيسينفيل ان الحالة ليست كما يجب ان تكون
وفيها ما يوجب التخوف والحذر
الا ان البارون سكن خاطرها واذهب ظنونها وتخوفها فقالت :
— شكراً لك . انك بددت مخاوفي وسكنت خاطري واعدت
شجاعتي

ومدت اليه كلتا يديها فتناولهما وضغط عليهما وما لبث ان ركم
امامها وقبلهما بحجارة وقال :

— آه يا ملكتي وسيدتي هذا اصدق خادم لك عند قدميك .
اقبلي مني يمين الطاعة الدائمة والحب الابدي . انك شرفتنني بثقتك
ودعوتني صديقن . الا ان نفسي وقلبي يتوقان الى لقب آخر .
فالفضيه يا ماري انتوانيت

فانسحبت الملكة وقد امتنع لونها واستولت عليها الدهشة اولا
فالاستياء من كلمات البارون . ثم لاحت على حياتها علامات
الغضب وقالت بلهجة العظيمة الملكية :

— لقد سبقت فقلت لك ان الله يرانا ويسمعنا . وأنت قد
ارتكبت امراً منكراً وقد سمعك الله فهو يتولى عقوبتك . انهض
ايها البارون . ان الملك لن يعرف شيئاً عن هذه الالهانة التي من
شأنها ان تجعلك من المغضوب عليهم ولكنني لا اليبث ان اطلع
جلالته على فعلتك اذا انت عدت الى مثل هذا

ثم اشارت بانفة الى المكان الذي كان يقصدها وقالت :

— ايها البارون تقدم امامي وسأبعك وحدي

فانصرف البارون مخزياً ولبثت تندب حظها اذ رأت ان اكثر

الاصدقاء لا قيمة لصدائقهم حتى ان هذا البارون المتقدم في السن والذي كانت تعتبره استاذاً لها تجاسر على اهانها وانها بقيت وحيدة فريدة لا صديق تثق به . وما لبثت ان عادت الى ابتهاجها اذ وصلت الى البقعة التي انشأتها لنفسها وبتتها برسمها الخاص بمساعدة البناء الشهير هو برت روبرت . هناك بيوت قروية صغيرة متلاصقة تقيم فيها القرويات وما هن الا نساء البلاط الشريفات . ومن حول الاكواخ جرت ساقية غزيرة تنصرف مياهها الى طاحونة هناك فتديرها وبقرب الطاحونة منزل منفرد محاط بالازهار هو منزل ماري انتوانيت وقد اختارت ان يكون مكانها هذا صغيراً بسيطاً وبجانبه بيت صغير هو بيت اللين واليه كانت تذهب مع وصيفاتها في زى القرويات فيجلبن الابقار ويحملن اللين في اكواب كبيرة الى بيت اللين . وعلى مسافة بيت حاكم النرية وبجانبه بيت معلم المدرسة . فلما وصلت الى الطاحونة تحركت عجلاتها وبدأت تدور ثم وقف على الباب الطحان بجسمه الضخم وملابسه البيضاء وقد ملأ غبار الطحين وجهه فصاحت المملكة صيحة النرح واسرعت اليه ولكن قبل ان تدركه فتج باب منزل الحاكم المجاور واقبل المحافظ في ثوبه الاسود وحول عنقه الوشاح الاحمر وفي يده العصا الاسبانية ولها قبضة ذهبية وعلى رأسه قبعة مثلثة الزوايا . فمشى الى ماري انتوانيت ووضع كلتا يديه على جنبه كما يفعل المستاء الناقم ووقف امامها وقال :

— ان استيائنا منك اعظم لانك اهملت واجبات المضيف اهمالاً معيباً . فكيف تعتذرين عن تاخرك الطويل . لان الازهار

قد طأطأت رؤوسها والبلابل انقطعت عن الانشاد والخراف في
الحقول أبت ان ترعى العشب وقد استولى الظأ على كل شيء هنا
لأنك غير موجودة وكل شيء يوشك ان يموت شوقاً اليك
واذ ذاك فتحت شرفة المدرسة وظهر الاستاذ متوعداً بعصاه
وهو يقول :

— هذا غير صحيح . كيف تزعم ان كل شيء آيل الى الخراب
وأنا هنا لاصلاح الحال . فنبذ انقطع العقلاء عن الدراسة اصبحت
أنا استاذاً للحيوانات فانا اعلم الماعز الرقص والجديان المباشطة
فقمهته ماري انتوانيت وقالت :

— أريد ان اختبر براعتك ولذا ارجو ان تقيم حفلة راقصة
هذا المساء في الحقل . وأما أنت يا حضرة المحافظ فارجو ان
تتساح قليلا وتغفر بعض هفواتي مراعاة لصغر سني
— وهل نحتاج قريبتى العزيزة الى من يعتني بها

— ما هذا يا كونت دي بروفانس . أراك لا تحسن تمثيل دورك
وفأنت اولا انني است الملكة في هذا المكان وثانياً ان الاطراء
ممنوع في تريانون

فانحنى الكونت الذي كان يمثل دور المحافظ وقال : — وهل
تعمد الحقيقة اطراء ؟

فقال معلم المدرسة وهو الكونت دارتواز : — هذا جواب خليك
باستاذ . وانت يا أخي تجول مبادئ علم السلوك فيجب ان تحضر
الى مدرستي

فماالت الملكة : — والآن افارقكم لانني أريد اولا ان اقابل
طحاني العزيز

واسرعت الى الطاحونة وصعدت على السلم الخشبي وطوقت
الطحان بذراعيها فضمها اليه ضاحكا وادخلها الى الطاحونة فقبلت
يد زوجها وقالت :

— اشكرك يا لويس لانك قابلتني هنا في مستعمرتي الصغيرة
— لقد صدعت بامرك أيتها العزيزة فانك امرت باجراء هذه
المساخر وان اكون انا الطحان والكونت دي بروفانس المحافظ
والكونت دارتواز معلم المدرسة . ونحن عبيد جلالة الملكة لا نخالف
لها امراً

— أتذكر يا لويس قولك لي لما منحتني التريانون ؟ قلت لي
« انت تحبين الازهار فساعطيك باقة كاملة منها . اعطيك تريانون
الصغيرة ^(١) »

ثم سمعا نشيداً تأنشده الاميرات والسيدات بلهجة قروية فاسرعا
الى مقابلتهن ثم جاءوا الملكة بالمغزل فجلست تغزل ودولاب المغزل
يدور كما كان يدور دولاب القضاء والتدريس بمصير الملكة وهي
لا تدري ما يضمه لها الزمان

وكان الملك قد انصرف الى الطاحونة ليرتاح . ولكنه لم يكن
هناك وحده . فمن ذا الذي تجاسر ان يزعبه ؟ لا بد ان السبب كان
خطيرا . اذ اشتهر ان الملك قلما كان يذهب الى التريانون ولكن
متى فعل اراد ان يكون بعيداً عن الاعمال والمهام الرسمية . ومع
هذا فقد جاء من ازعبه . ان البارون دي برنوي رئيس الوزارة جاء

(١) كلمات الملك . « مذكرات ماركيز دي كركوي » مجلد رابع

يلتمس مقابلة الطحان في تريانون ويذكره ان يكون ملكا فيها
وينظر في امر خطير

الفصل الرابع

عقد الملائكة

لما أعلن الحاجب قدوم البارون دي برتوي انسحب الملك الى
مقصورة ونزع ملابس الطحان وارتدى ثيابه العادية ومن فوقها
الرداء الطويل ووضع شارة وسام لويس ثم دخل الغرفة التي انتظره
فيها كبير وزرائه فقال :

— عجل واخبرني ما الذي حدث حتى جئتني الى هنا ؟
— لقد حدث ما لم يكن منتظراً وأما أهميته فتتوقف على
نتيجة التحقيق

— اذاً هناك جريمة ؟

— نعم يا مولاي انها جريمة غش وخداع تتعلق بمبالغ طائلة
وأشياء ثمينة

— اذاً فالمسألة مالية ؟

— لا يا مولاي بل هي تمس شرف الملكية
فنهض الملك غاضباً وقال بحدة :

— وهل يجسرون على التعرض لشرف الملكية ؟

— نعم يا مولاي انهم تجاسروا على ذلك وقد دبوا مكيدتهم
هذه المرة بعناية يتعذر معها الوقوف على الحقيقة . ألا تذكر

يا مولاي ان جوهرى البلاط (بوهمر) كان قد تشرف فعرض عليكم عقداً جميلاً

- نعم اذكره وكان قد بلغني ان الملكة اعجبت كثيراً بالعقد ولكنها ابت ان تشتريه لانه يقتضي مالا كثيراً فاردت ان اشتريه وأقدمه لها فابت وأصرت على الالباء

- لا نزال نذكر يا مولاي جوابها الحسن لجلالتك وقد كررت باريس بأسرها كلمات جلاتها عند قولها « عندنا جواهر اكثر مما عندنا مراكب فانفق المال على مشتري مركب^(١) »

- ارى ان ذا كرنك قوية ايها البارون . فقد مضى على هذا الحادث خمس سنوات وكان (بوهمر) قد حاول مراراً ان يحملني على مشتري العقد فلم يفلح واضطرت اخيراً ان امنعه من الاشارة اليه

- ولكنه ازعج الملكة بشأنه مراراً والظاهر انه كان منذ سنوات قد جمع من كل الانحاء اثنى الجواهر وألف منها عقداً ثميناً فلما ابت الملكة ان تشتريه بمائوني فرنك رضي ان يبيعه بمائون وثمانمائة الف فرنك

- علمت كل هذا وان الملكة لما ضجرت منه امرت ان يمنع من الدخول الى البلاط

- فلما منعه عمد الى الكتابة مرة كل اسبوعين فقرأت جلاتها تحاريه بحضور وصيفتها مدام كامبان وقالت ان العقد اذهب صوابه ثم احرقت تحريره على شمع كانت امامها

(١) كتاب المراسلات السرية في بلاط لويس السادس عشر

- وكيف عرفت كل هذا

- من مدام كامبان يا مولاي اذ اضطررت الى محادثتها بشأن العقد

- وما علاقة الملكية بالعمد ؟

- مولاي . يقول بوهرم ويؤكد انه باع العمد لجلالة الملكية وهو الآن يطلب الثمن

- صدقت الملكية فتمد اضاع الرجل عقله واذا كانت الملكية قد اشترت منه العمد فعلا فلا بد ان يكون ذلك بحضور شهود ولا بد ان يعلم بالامر وكيل خزينة جلالها

- مولاي : يقول بوهرم ان الملكية امرت بمشترى العقد منه سراً بواسطة فريق ثالث وان هذا الفريق المؤتمن كلف ان يدفع لبوهرم ٣٠ الف فرنك نقداً وان يعده بدفع ٢٠٠ الف فرنك اخرى - وما اسم هذا الوسيط المؤتمن ؟

- هو يا مولاي معلم ذمة جلالتك الكردينال البرنس لويس دي روهان

فصاح الملك ونهض مذعوراً :

- روهان ؟ وهل بلغ من جرأتهم ان يزعموا بوجود علاقة بين الملكية وبين هذا الرجل الذي تكرهه وتحتقره ؟ لعمري انها حكاية ملفقة

- الا ان بوهرم صدقها ودفع العمد الى الكردينال وأحرز وعد الملكية بدفع باقي الثمن وهذا الوعد معه وقد كتبته الملكية بخط يدها

- من زعم هذا . وكيف عرفت كل هذه الامور ؟
- عرفتُها من كتاب ارسله الي بوهمر بعد ان حاول مراراً
مقابلتي فلم يفلح ولم افهم كفاية من تحريره ولكنه قال فيه ان
وصيفة الملكة اوعزت اليه ان يقابلني . ولذلك قابلت مدام
كامبان فبلغ من اهمية ما علمته منها انني سألتها مرافقتي الى هنا
لتروى لجلالتكم ما روته لي
- اذاً فلنذهب الى تريانون لأنني اريد ان اكلم مدام كامبان
حتى اذا وصل جلالتك الى مقصورة زينة الملكة راى مدام
كامبان فسألتها عما تعلمه فقالت : - وهل يامرني جلالة الملك ان
اتكلم قبل ان تعلم الملكة بالامر ؟
فتحول الى الوزير وقال : أرأيت ان الملكة تجهل الامر ؟ وهي
لا تكتم عني سرّاً والأفضل ان تحضر الملكة
ثم نادى ويبر وامره ان يدعو الملكة لأمر خطير ثم قال
للوزير : ولكي ترى وتسمع ان الملكة لا علم لها بشيء من كل هذا
اريد ان تحضر محادثتي لها بدون ان تراك او تعلم بوجودك
وعلى ذلك امره ان يجلس في الغرفة المجاورة وامر مدام كامبان
ان تبقى الباب مفتوحاً بعد انزال الستائر
وبعد نحو ربع ساعة اقبلت الملكة موردة الخدين فاسرع الملك
وقبل يدها معتذراً عن ازعاجها وقال :
- كل ما في الامر ايها العزيزة ان بوهمر جوهرى البلاط
يؤكد انه باع لجلالتك عقداً بمبلغ مليون وثمانمائة الف فرنك
- الرجل معتوه . وهل هذا كل ما اردته مني جلالتك ؟

فاشار الملك الى مدام كامبان وكانت عند وصول الملكة قد
انزوت بعيداً وقال :

— ارجو من جلالتك ان تصني حديث مدام كامبان امس
مع بوهمر

فذهرت الملكة وقالت بدهشة : — كيف هذا ! انت هنا ؟
وما المعنى ؟

— لقد جئت الى ترياتون لاطلع جلالتك على حديث جرى
لي مع بوهمر فوجدت انه كان قد سبقني الى هنا
وماذا يريد ؟ أما قلت لي يا كامبان انه لا يملك العقد الآن وانه
باعه الى سلطان تركيا وارسله الى الاسطوانة ؟

— ذلك ماقاله لي بوهمر والآن استأذن جلالتك في سرد حديثي
معه امس . فعلى اثر انصراف جلالتك الى تريانون مع دوقه بولينياك
جاءني الجوهرى مضطرباً حائراً وسألني اذا كنت جلالتك قد
ركت له شيئاً عندي . فاجبته سلباً وان جلالتك لا شأن لك معه
وانك تعبت من الحاحه فقال : « ولكن يجب ان احصل على رد
ليكتابي الذي ارساته اليها فكيف السبيل الى ذلك ؟ » . فاجبته :
« لا سبيل الى ذلك لان الملكة احرقت كتابك بدون ان تقرأه »

فاجاب : « هذا مستحيل فالملكة تعلم انها مدينة لي بالمال »
فاجابت الملكة مذعورة : — أنا مدينة له بمال ؟ كيف يزعم ذلك
— قلت له ذلك فاجابني بكل ثقة ان جلالتك مدينة له بمليون
وخمسمائة الف فرنك ولما سألته بدهشة عن سبب هذا الدين قال :
« ثمن عقدي »

— قد عاد هذا العقد المنحوس . وكأنه لم يصنعه الا لتكديري فهو ما برح كل هذه السنوات يواصل ازعاجي بالعقد رغماً من امتناعي الدائم وقد بلغ من جنونه انه يؤكد انني اشتريته فقال الملك : — الرجل عاقل فاصغي لبقية حديث مدام كامبان فاستأنفت مدام كامبان حديثها وقالت : — فضحكت وأجبتة كيف تزعم هذا الزعم وانت اخبرتني ان السلطان اشتراه منك . فاجاب ان الملكة امرته ان يقول ما قاله متى سئل عن العقد وان جلالتك اشتريت العقد منه بواسطة الكردينال روهان فنهضت الملكة وقالت : — بواسطة روهان ؟ الرجل الذي اكرهه واحتقره ؟ وهل في فرنسا باسرها من يصدق هذا الزعم ولا يعلم ان الكردينال احط الناس مقاماً عندي ؟ قلت للمسيو بوهمر انه مخدوع وان الملكة لا تجعل مثل الكردينال موضع سرها وثقتها فاجابني « انت مخدوعة فان للكردينال حظوة عالية لدى جلاتها وبينهما علاقات خاصة حتى انها ارسلت اليّ بواسطة الدفعة الاولى وقدرها ٣٠ الف فرنك وقد تناولت الملكة هذا المبلغ من المال بحضور الكردينال من خزائنها الخاصة الموضوعة قرب الموقد في غرفة زيتها الخاصة » فاكدت له انه مخدوع فاضطرب وقلق وقال « يا الله ! ماذا يحل بي اذا صدق قولك . ولقد بدأ يخالجنني الريب منذ وعدني الكردينال ان الملكة تلبس العقد يوم احد العنصرة وهي لم تفعل ولذلك كتبت اليها » فنصحت له ان يقابل البارون دي برتوي وفعل واسرعت انا لاطلع جلالتك على ذلك فوجدت انه سبقتني ولم ينصرف الا بعد ان

وعدته ان اعرض الامر على جلالتك اليوم
فتحولت الملكة الى زوجها وقالت بحدة وانفة : - مولاي
لقد سمعت الحكاية . لقد انهموا زوجتك بل انهموا الملكة بوجود
علاقات سرية بينها وبين الكردينال روهان . فانا اطلب التحقيق
المشدد الدقيق . فادع الآن البارون برتوي للمداولة معه . وانا اصر
على التحقيق

- ارادتك امر . ادخل يا برتوي

فلما دخل الوزير قال الملك لزوجته :

- اردت ان يكون شاهداً سرياً لمحدثنا فيقف على الحقيقة .

وسندع الالب دي فيرمون ليشترك معنا في مداولتنا

ففي اليوم التالي اي ١٥ اوغسطس اجتمع في قاعات فرسايل
جمهور غفير من خاصة الاعوان والاعيان رجالا ونساء اذ كان يوم
عيد الصعود وقد اراد الملك والملكة وسائر رجال البلاط ونسائه
ان يحضروا القداس الذي يقيمه في معبد القصر الكردينال لويس
دي روهان بنفسه . ودخل الكردينال الى قاعة الاستقبال الكبرى
وقد غصت بالناس وهم ينتظرون قدوم الملك والملكة ليتقدماهم الى
الكنيسة . دخل الكردينال بملابسه الكهنوتية الرسمية وانصرف
الى محادثته دوق دي كوندې والكونت دارتواز واذا بالباب قد فتح
واقبل الحاجب فشى بين الجماهير حتى وصل الى الكردينال وقال
له : - ايها السيد ان جلالة الملك ينتظر نيافتك حالا في ممتصوريته .
فاصرع الكردينال حتى اذا دخل غرفة الملك لم يكن فيها غير جلالته
والملكة . واما البارون برتوي فانه انزوى في عطفة النافذة وهو

ينتظر ما يكون من أمر عدوه القديم الكردينال . فلما وصل
الكردينال فاجأه الملك بقوله :

— ارى انك كنت تشتري جواهر من بوهر ؟

— نعم يا مولاي

— وماذا صنعت بها ؟ أجبت . انني أمرك

— مولاي لقد حسبت انها أعطيت الى الملكة

— ومن كلّفك بهذه المهمة ؟

— سيّدة اسمها الكونتة لاموت فالوى . اعطتني رسالة من

جلالة الملكة واعتقدت انني اخدم جلالها اذا توليت هذه المهمة
التي تفضلت جلالها فعهدت اليّ بها

فقالت الملكة بازدرأ : — انا اعهد اليك بمهمة لي ؟ وانت

تعلم انني منذ ثماني سنوات لم اتنازل الى مخاطبتك بكلمة واحدة .
وهل اعهد باعمالي الى رجل نظيرك ، طالب وظائف ؟

— ارى الآن ان بعض الناس قد خدعوا جلالتك بشأني .

فسأدفع ثمن العقد . انني لم احاول الخديعة وقد ادركت الآن انهم
خدعوني ولكنني سأدفع ثمن العقد

فقالت الملكة بغضب : — وهل تظن ان الامر يقف عند هذا

الحد ؟ وانك اذا دفعت هذا المال تكفر عن الالهانة التي سببتها
للملكة ؟ لا . لا بل انا اطلب التحقيق التام ليعاقب جميع الذين

اشتركوا في هذه الدسيسة . هات البراهين على انك كنت مخدوعاً

وانك لم تكن الخادع المحتمل

— هو ذا براهين براءتي

واخرج من جيبه محفظة واخرج منها ورقة مطوية وقال : -
هذه رسالة الملكة الى كوننة لاموت وفيها فوضت الملكة الي ان
اشترى الجواهر

فتناولها الملك ونظر فيها ثم دفعها الى الملكة فما لبثت ان ضحكت
ضحكا عاليا ورمت الكردينال بنظرات كالسهم وقالت : - ليست
هذه كتابتي ولا التوقيع توقيعى . وكيف تجهل وأنت البرنس الملكي
ومعلم ذمة الملك انني لا أوقع رسائلي بتوقيع « مارى انتوانيت من
من فرنسا » ان الناس جميعاً يعلمون أن الملكات يضعن اسمهن
الاول فقط وأنت تجهل ذلك

فاصفر وجه الكردينال واضطرب وخائنه قواه وقال : أرى
الآن ما لم أره من قبل . أنهم خدعوني

فتناول الملك ورقة عن المكتب وقال للكردينال : أتعترف
انك كتبت هذه الورقة الى بوهمر وبموجبها أرسلت اليه . ٣ الف
فرانك دفعة اولى من قبل الملكة ؟

- نعم يا مولاي أعترف بذلك

^{سسه} فاستشاطت الملكة غيظاً وقالت : - انه يعترف بذلك وانه
اعتبرني موضع سوء الظن

فقال الملك : - انت تؤكد أنك اشترت العقار للملكة . فهل
سلمته الى جلالها بيديك ؟

- لا يا مولاي بل سلمته الى الملكة كوننة لاموت

- وفعلت ذلك باسمك ؟

- نعم باسمي . وفي الوقت نفسه أعطت الملكة وصلاً بمباغ

١٥٠ الف فرنك كنت قد أعطيتها للملكة سلفه لشترى العقد

— وماذا كان جزاؤك من جلالتهما ؟

فتحول الكردينال الى الملكة وقال : — اتردين ياسيدي أن
ابوح بالحقيقة جميعها ؟ ثم قال للملك : — اعلم يا مولاي ان الملكة
احسنت كثيراً جزائي على هذه الخدمة . ان جلالتهما سمحت لي
بمقابلتهما في حديقة فرسايل

فلما سمعت الملكة هذه التهمة الجديدة المنكرة نهضت كاللبوة
وامسكت بذراع زوجها وهزته بعنف وصاحت : — مولاي
اصغ لما يقوله هذا الخائن . انه يتهم الملكة . فهل تطيق ذلك منه
وهل تصونه ملا بسه الكهنوتية ؟

فصاح الملك بغضب : — لا . انها لا تصونه وأنت يا برتوى
قم بالواجب عليك . وأنت ايها الكردينال يا من تجاسر على اتهام
ملككتك وتشويه سمعة زوجة مولاك الملك . اذهب
فقال الكردينال : — مولاي انا

فقاطعه الملك وقد نهض واثار الى الباب قائلاً : — لا تتكلم
اذهب أبعدك الله

فتراجع الكردينال وخرج من مقصورة الملك الى القاعة الكبرى
وقد غصت بجاهير الاعوان والاعيان وهم يضحكون ويتهايمسون .
ولم يتقدم الكردينال بعض خطوات حتى جاء من ورائه الوزير
برتوى نفاطب رئيس الحرس بصوت عال قائلاً :

— أيها الضابط انني اكلفك باسم جلالة الملك ان تقبض على
الكردينال دي روهان وان تسوقه سجيناً الى سجن الباستيل

سرى هذا الصوت بين الجمهور كما يسرى الرعد وانقض علمهم كالصاعقة وهم يلهون ويفرحون فذعروا وتصاعدت اصوات الدهشة والرعب . ثم ساد السكوت وتحولت الابصار الى الكردينال الذي علت وجهه صفرة الاموات واذا بضابط شاب قد اقترب منه وعلى وجهه مثل صفرة الموتى أيضاً فتناول ذراع الكردينال العظيم بلطف وقال بلهجة الحزين

— أيها الكردينال انني باسم الملك أقبض على نيافتك وقد أمرت أن أذهب بك الى سجن الباستيل
فمشى الكردينال مسرعاً في الطريق التي فتحتها له الجمهور باحترام وقال : - سر بنا يا بني ما دام الملك قد أمر . هيا بنا نذهب الى الباستيل

ومشى حتى بلغ الباب ففتحه الضابط واذا ذاك تحول الكردينال الى الجمهور الداهل وبكل عظمتة الكهنوتية باركهم وانصرف . وعند ذلك انصرف الاشراف والاعيان يذيعون الأنباء الخيفة في فرسايل وباريس ويقولون أن الملك أمر بالقبض على الكردينال العظيم ومعلم الذمة الأكبر وهو في ملابسه الكهنوتية وان ذلك كان بارادة الملكة . وأخذ الخبر ينتشر وتزيد الوشائات والنهم بالتشاره

ولما امسى المساء كان مارات يصخب ويصيح في النادي
« الويل للنمساوية . انها استدانّت مالا من الكردينال لتشتري جواهر لنفسها بينما الشعب يجوع فلما تقاضاها الكردينال الوفاء أنكرت الدين وسمحت أن يجر من الكنيسة الى الباستيل .

فالويل للنمساوية « وجلس بجانبه سيمون الاسكاف فصاح
« نعم . الويل للنمساوية نحن لا نسى انها تشتري جواهر بالملايين
ونحن لا نملك قوت يومنا . الويل للنمساوية » فنهض جميع اعضاء
النادي وصاحوا « الويل للنمساوية »

الفصل الخامس

أصدقاء وأعداء

اضطربت باريس وامتلاّت شوارعها بجماهير الناس يصغون
الى الخطباء وقد ملأوا زوايا الشوارع وأطلقوا السيوف طعناً على
الملكمة وتنديداً بالحادث الخطير ومنهم راهب فرنسيسكاني وقف
خطيباً على زاوية التويلري وبلاس دي كاروسال فقال : « لقد
حرموا الكردينال دي روهان العظيم من حقوقه وحرّيته . وهو
غير خاضع لسلطة الحاكّين ولا سلطة لأحد عليه الا قداسة البابا
لان شريعة فرنسا منذ أجيال تقضي بانه لا تجوز معاقبة كاهن الا
بواسطة رئيسه الاعظم فهل بلغكم ايها الناس ماذا جرى ؟ لقد
ابعدوا الكردينال عن دائرة سلطته وأبوا محاكمته أمام مجلس
كنسي وقرروا محاكمته أمام البرلمان كأنه واحد من رعايا الملك
ويتولى افراد من العلمانيين محاكمة هذا الكاهن العظيم من اجل
ذنب لم يرتكبه . والا فاما الذي جناه الكردينال وابن عم الملك ومعلم
الذمة الاكبر ؟ جاءت امرأة ظنها موضع ثقة الملكة وانباته ان
الملكمة تريد الحصول على جواهر لم يكن في وسعها ان تشتريها

لفراغ خزينتها من المال على أثر اسرافها المشهور وانها ترجو ان يسلفها المال وان يشتري الجواهر باسمه فليطلب فراراً من ان تاجماً للملكة تهورها الشهير الى رجل آخر من البلاط فتتطل شرفها الملكي . الا تفضلون ايها السادة ان تستدين الملكة المال من الكردينال الجايل على ان تستدين من البارون لاوزون أو الكونت كويني أو الكونت فودريل صديق الملكة الخاص . . . اما احسن الكردينان صنماً باسدائه هذا المعروف الى الملكة ؟

فوافق الجمهور على خطبة الراهب وهتفوا بالدعاء للكردينال وعلى المرأة المساوية والملكة المنولة بالجواهر وصاح صائح : — اصنعوا يا اهلالي باريس ايها الخراف الساذجة التي يحجز صوفها لتنام المرأة المساوية على سرير ناعم . ساروي لكم ما حدث اليوم فقد سمعته من صديق في البرلمان جاء بصورة الخطاب الذي يلقيه الملك في جلسة اليوم . ربما لا تدركون ما اقوله لانني ضعيف بالنسبة اليكم كما هو شأن كل صنيـر اذا اراد ان يقاوم اعظم سلطة ارضية الا وهي الشعب

فطرب الجمهور لهذا الاطراء وصاح احدهم : — هذا مرات صديق الشعب فارفعوه الى حيث يشرف علينا ونسمع اقواله . فلما رفعوه الى مكان عال خطب فيهم ما خلاصته :

« ايها الشعب اتم الامة . انتم ولي عهد هذه المملكة . وسأوافيكم من موقفي هذا بنبأ غريب عما ارتكبته ملكة فرنسا بعد ان ملكت كل شيء من امورنا . ساتلو عليكم نص الخطاب

(٤) ماري اتوانيت

الذي ارسله الملك الضعيف اليوم الى البرلمان وبه تبدأ محاكمة الكردينال روهان

« من لويس بنعمة الله ملك فرنسا ونافار تحية الى المستشارين الاعزاء الامناء أعضاء البرلمان

» لقد اتصل بنا ان رجلاً يدعى (بوهر) وآخر يدعى (باسانج) قد باعا الكردينال روهان عقداً من الجواهر يقدر ثمنه بمليون وسائة الف فرنك بدون علم الملكة زوجتنا المحبوبة كثيراً وقد افهمهما الكردينال انه يشتري العقد عملاً باوامر الملكة وعرض عليهما بعض اوراق اعتقدت انهما من توقيع الملكة وبعد ان دفعا العقد الى الكردينال المذكور وتناولا القسط الاول من ثمنه خابرا الملكة . ورأينا بغضب عادل الاسم العزيز لدينا عرضة للاهانة محروماً من الكرامة التي يستحقها . فرأينا ان نبيح للكردينال عرض دعواه على مجلسنا ونظراً لما جاهر به امامنا من ان التي خدعته هي امرأة تدعى (لامرت فالوى) رأينا من الواجب التنبض عليه وعلى المرأة المذكورة لنعضج جميع الذين اشتركوا في هذه المكيدة . ولذلك اقتضت ارادتنا ان تعرض المسألة على مجلس البرلمان الاعلى للنظر فيها واصدار الحكم اللازم »

وعلى مرات على هذا الامر ملاحظاته فقال للشعب المتأثر : — أراهم النسيج الذي حاكته المرأة النمساوية حولنا ؟ فانما هي التي أرسلت هذه الرسالة الى البرلمان وانتم تعلمون انه لا ملك في فرنسا الآن وان فرنسا كلها هي التريانون والمرأة النمساوية . ففي كل مكان رى الشعار الجديد « بأمر الملكة » وهي ملكة فرنسا

وليس الملك الا العبد الخاضع لاوامرها . وهي الآن قد داست واحترقت الحشمة والدين في شخص الرجل الجليل الكردينال روهان

واذا بصائح من الشعب يقول : — حذار فقد اقبل الجنود .
وفعلاً اقبلت فصيلة من الجند فتفرق الشعب واختفى مارات
ومن ذلك الحين بدأ التحقيق في قضية العقد وظل الكردينال
سجيناً في الباستيل مكرماً من السجنان محترماً من قضاة التحقيق في
جميع الادوار وشاع ايضاً ان قد قبض على امرأة تشبه الملكة
كثيراً ووضعت في الباستيل . اما اصدقاء الملكة فقد جاهدوا
ببراءتها ولكن عددهم كان قليلاً بل كان يتناقص يوماً . واضطر
الملك الى الاقتصاد في نفقاته كما اضطرت الملكة الى منع خيراتها
الجمّة عن اصدقاءها خصوصاً افراد عائلة بولينياك وكان الايمان قد
نقموا على جلالها لتوجيه عنايتها الخاصة الى هذه العائلة فتفرقوا
من حولها واحاط بالملك والملكة شيء كثير من الدسائس

الفصل السادس

المحاكمة

طال الاستعداد لمحاكمة الكردينال روهان الى سنة كاملة وفي
٣١ اغسطس سنة ١٧٨٦ جرت المحاكمة . وفي غضون هذه المدة
الطويلة تمكن اصدقاء الكردينال واقاربه من اسئالة الراي العام اليه

واستمالة القضاة أيضاً وأعضاء البرلمان وتحويلهم عن الملكية . ولما أصبح صباح يوم ٣١ اوغسطس جلس اعضاء البرلمان وهم القضاة في مجالسهم باثوابهم السوداء الضافية تجاه الطاولة الخضراء وأقبل الكردينال يمشي مشية التيه بكل أبهة منصبه وحالما دخل بارك القضاة ثم قال ما مؤداه :

حدث منذ ٣ سنوات ان احدى قريباته مادام دي بولا نقييلير جاءته بشابة وسألته ان يعولها . وهي سليمة عائلة شريفة من سلالة ملوك فرنسا القدماء من عائلة فالوى . ودعت نفسها كونتة (لاموت فالوى) وكان زوجها الكونت (لاموت) ثاني قائم مقام فرقة حرس في مدينة صغيرة فلم يساعده راتبه على نفقاتهما . وكانت الشابة حسناء ذكية ذات أدب بارع وأخلاق سامية وطبيعي ان يهتم الكردينال بأمر سليمة ملوك فرنسا القدماء . فتولى اعالتها زمناً وتمكن بعد العناء والاجتهاد من حمل الملك لويس السادس عشر على تعيين معاش لها قدره ١٥٠٠ فرنك فذهبت الكونتة الى فرسايل لترفع شكرها شخصياً الى جلالة الملك . وعادت في الغد ترقص فرحاً وأخبرت الكردينال ان المالكة لم تكثف بمقابلها بل عامتها بلطف عظيم وسألها أن تتردد عاها مراراً . فصارت لها مكانة خاصة عند الكردينال لانها كانت تذهب الى فرسايل وتظهر له من وصف زياراتها انها كانت ذات منزلة سامية هناك ولها كرامة خاصة لدى المالكة . الا ان الكردينال وجد نفسه على غير ذلك فان المالكة كانت تنفر منه وتعرض عنه ولم تتنازل مطلقاً الى مخاطبته فتكدر كثيراً وحاول بوسائط جهة ان يصلح مركزه لدى جلالها وأخيراً

شرح أمره للكونتة فوعده ان تبذل نفوذها في سبيل استرضاء الملكة وبعد أيام قليلة أخبرته انها انجزت وعدها وانها عرضت كدره لجلالته بالفاظ اثرت في عواطف الملكة فقالت للكونتة انها تصفح عما مضى اذا ارسل الكردينال الى جلالته رسالة بخط يده يعتذر فيها عما اساء به اليها والى والدتها الامبراطورة ماريا تريزا. فاسرع الكردينال الى اجراء ذلك مسروراً. وارسل الى الملكة رسالته التمس فيها العفو عما بدر منه اذ طلب من الامبراطورة ماريا تريزا عند ما كانت الملكة لا تزال زوجة لولي العهد والكردينال يومئذ سفير فرنسا في فيينا ان تردع ابنتها عن سوء مسلكها . هذا هو ذنب الكردينال العظيم وقد استغفر من جلالته وفي الوقت نفسه التمس من جلالته ان تسمح له بمقابلتها ليقدم احتراماته و يلتمس مغفرتها وهو جاث أمامها . وبعد مضي أيام قليلة دفعت اليه الكونتة ورقة كتبها الملكة بيدها رداً على رسالته

فقال رئيس المحكمة : — وهل الورقة المذكورة باقية لدى نيافتك ؟

— انني منذ أسعدني الحظ بالحصول على تحارير الملكة ما برحت أحفظها معي وأحملها في جيبى وكانت تلك التحارير معي لما قبضوا عليّ في فرسايل . ولحسن حظي لم تكن هذه التحارير في مكتبي يوم دخلوه وأحرقوا ما فيه من الاوراق . واليك يا حضرة الرئيس التحرير الاول الذي جاءني من الملكة

واخرج التحرير من محفظته ووضعه أمام الرئيس ففتحه وقرأ ما فيه كما يأتي : —

« وصلتني رسالتك وسرني انك عدلت عن تصرفك الماضي .
وفي الوقت نفسه أتأسف لانني لا أستطيع ان أجيب طلبك وان
اسمح لك بمقابلتي . ولكن حالما تسمح الاحوال بذلك افيدك .
فالى ذلك الحين الزم السكوت

ماري انتوانيت ملكة فرنسا » (١)

فاظهر القضاة دهشهم لسماع هذه الرسالة وعطفوا على
الكردينال ثم كأن الرئيس لاحظ لأول مرة ان الكاهن العظيم
الشريف كان واقفاً فتال بصوت جهوري :

— اعطوا نيافة الكردينال كرسيّاً

فشكر الكردينال له هذه العناية وجلس فقال الرئيس :

— تفضل يا صاحب النيافة باتمام حديثك

وهذه بقية رواية الكردينال :

« ان مثل هذه الرسالة من الملكة ملأت قلبه سروراً خصوصاً
انها تعلمه بامل مقابلتها فألح على الكونتيسة ان تمكنه من مفايلة
جلالها لانه رأى ان الملكة رغماً من غفرانها له وكتابتها اليه كانت
لا تزال في كل محفل واجتماع تعامله باحتقار وازدراء

وحدث يوم احد وهو يقيم القداس لجلالة الملك والملكة انه
تجاسر ودخل غرفة استقبال الملكة فرمته بنظرة احتقار وغضب
وادارت وجهها عنه وقالت لكونتيسة بولينياك بصوت عال « ما هذا
التصرف المعيب ؟ يظن هؤلاء الناس انهم متى لبسوا الارجوان

(١) « تاريخ ماري انتوانيت » تأليف جونكور صحيفة ١٤٣

يفعلون ما يشاؤون ويتصورون انهم في درجة الملوك بل يجراًون على
مفانحتهم الحديث »

هذه الكلمات جرحت الكردينال وكدرته وتطرق الى خطره
لاول مرة الريب في صحة ما نقلته اليه كونه لا موت . بل ارناب
في صحة تحرير الملكة اليه لانه لم يقدر ان يوفق بين عطف الملكة
السري عليه ونقمتها الظاهرة واحتقارها له . فخاطب الكوننة بما
خطر له وأنذرها انه لا يثق بشيء من رواياتها الا اذا مكنته في
وقت قريب من مقابلة الملكة بمقابلة شخصية . فسخرت الكوننة
من ظنونه ووعدته خيراً فوعدها ان يعطيها ٥٠ الف فرنك اذا
انجزت وعدها دليلاً على شكره »

فقال الرئيس : — وهل انجزت كونه لا موت فالوى
وعدها لك ؟

فقال الكردينال : — أشعرياً سادتي أن قلب الرجل لا يزال
ينبض تحت ثوب الكاهن ولا اجهل أن من العار على الرجل ان
يفشي اسرار امرأة وليس من الشهامة أن يذيع الرجل تعطفات
سيدة عليه . والكتني مضطر أن أركب هذا المركب الخشن وان
أحتمل هذا العار في سبيل الدفاع عن الكهنوت ولانني لا اتجاسم
ان اسمح بتدنيس ثوبي اشريف بوضعة الكذب . وقد أكور
في هذا الحادث مخدوعاً على انني لا أجراً على اهانة شرفي بان
يقال انني كنت خادعاً ولذلك اراني مضطراً الى انشاء سر سيدة
وملكة . اما جوابي على سؤال حضرة الرئيس فهو بالايجاب .
نعم ان الكوننة مكنتني من مقابلة الملكة . جاءني الكوننة بثمر

باسم وسألتني أن أرافقتها بعد يومين الى فرسايل حيث اقابل الملكة في مكان معين من الحديقة وتقرر ان استبدل ثوب الكهنوت بملابس اهالي باريس . اما انا فقد فاجاني هذا التنازل من جلالة الملكة ولم اصدق لأول الأمر . فضجكت الكونتة وأطامتني على تحرير من الملكة اليها توصيه فيه ان توعد الى الكردينال ان يكون شديد الحذر في هذه المقابلة وان يخاطب جلالها عند المقابلة بصوت خافت لأن الجدران حولها كلها آذان وأن لا يخرج من مخبأه الا متى ابدت الملكة الاشارة المتفق عليها . فلما قرأ الكردينال هذا الكتاب تلاشى كل ريب من ذهنه واصبح ينتظر الموعد على مثل مالي الجمر الى ان حان الوقت المعين فذهب مع الكونتة متنكرًا بملابس الأهالي في عربة عمومية الى فرسايل . فسارت به الكونتة الى شرفة القصر وأوعزت اليه ان يختبئ وراء شجيرات عُضة وتركته يُتنبئ الملكة بقدومه وكانت جلالها قد الفت التنزه مساء كل يوم في الحديقة مع كونت وكونتة دارتواز . ولبت الكردينال في مخبأه يراقب الطريق التي تسلكها الملكة عند قدومها وقلبه يرقص فرحاً وما لبث ان رأى على نور القمر شبح امرأة طويلة الغوام في وشاح اسود وقد ازدان شعرها بدبابيس كبيرة ذات رؤوس زرقاء وهي تسرع السير ومن ورائها الكونتة لاموت فزال كل ريب من ذهنه اذ رأى الملكة ماري انتوانيت تدنو منه وقد لبست الثوب الذي لبسته يوم الأحد الماضي ^{Countess} وسرحت شعرها على النمط الذي رآها فيه لما زار فرسايل يومئذ . فلما صارت على مقربة منه قالت :

نخرج الكردينال من مكانه وركع امام الملكة وانهم اليد اللطيفة التي امتدت اليه فتمالت الملكة همساً : — لسوء حظ لا أقدر ان اتقي مع نيافتك هنا الا دقيقتة من الزمان ولكنني لا اضمر لك سوءاً وعن قريب سأرائيك بالأدلة على رضاي التام . اما الآن فاقبل هذا الدليل على عطفي ورضاي وتناولت الملكة وردة من صدرها فدفعتها اليه ثم اعطته علبه وقالت :

— هذه صورتني اكثر النظر اليها وتأكد دائماً انني
واذ ذلك قاطعها الكونتة فبست منها وقالت :
— انني اسمع وقع افدام فاستحلف جلالتي أن تسرعني بالفرار

وسمعت اصوات قريبة فتنرات الملكة يد :
— سيري بنا يا صديقتي واني الملتقي يا حضرة
فعاد الكردينال الى باريس مسروراً بالمقابلة من افتتاحها
وفي الغد جاءه الكونتة بتذكرة من الملكة اظنه
القلبي لأن مقابلتهما امس كانت قصيرة ووعدته
وقت قريب . وبعد هذا الحادث بأيام اضطر
مزايلة باريس قاصداً الانزاس للاحتفال بعيد
التالي جاء الى الانزاس زوج الكونتة وقد اعطى
الكردينال رسالة من الملكة مثل سائر رسائلها اليه
والغاز قالت فيها « لم يازف الوقت الذي انتظره
ان تعود حالا الى باريس لأنني مهتمة بمسألة خاصة بي

شخصياً وساعده بها اليك دون سواك واحتاج الى مساعدتك في انجازها . ان الكوننة لاموت فالوى تعطيك حل هذا اللغز » فاسرع الكردينال الى العمل بأمر الملكة وعاد الى باريس وقصد القصر الصغير الذي اشترته الكوننة بما حباها من المال فعلم منها السبب الذي من اجله استدعي الى العاصمة وانه يتعلق بمشترى عقد من (بوهمر وباسانج) كما قد عرضاه تكراراً على الملكة وقد رأت الملكة العقد ففتنت به ولكنها امتنعت عن مشتراه لارتفاع ثمنه ثم ندمت على امتناعها وناقت نفسها الى الحصول عليه فارادت ان تشتريه سرّاً فلا يعلم الملك بذلك وان تسدد ثمنه في خمسة اقساط بما تقتصده من نفقاتها الخاصة . على ان بوهمر كان ينوي ارسال العقد الى الاستانة وقبل ان يرسله عرض على الملكة لآخر مرة ان تشتريه وانه يرضى بشروطها . وكانت خزينة الملكة فارغة يومئذ لأنها اكثرت من الاحسان الى الفقراء في فصل الشتاء الماضي . ولما كانت راغبة في مشترى العقد فانها تعطف فشملت الكردينال بعناية خاصة وعهدت اليه ان يشتري العند باسمها على ان تعطيه ورقة بخط يدها بما كالتنويض بشرط ان لا يطلع عليها الا الجوهري بوهمر عند مشترى العقد . وأن يدفع الكردينال القسط الاول وقدره ستمائة الف فرنك من ماله الخاص وتدفع الملكة المليون الباقي اقساطاً قدرها مائة الف فرنك كل ثلاثة شهور وعند تسديد القسط الثاني تعيد الى الكردينال المال الذي دفعه وقدره ستمائة الف فرنك . فسر الكردينال بما رآه من عطف الملكة وما ميزته به من دليل الرضى فاكتفى بالتفويض من خط الملكة وبعد

مضي يومين فقط جاءت الكونتيسة بالتفويض المطلوب مؤرخاً من
الترينتون وعليه توقيع جلالته . على ان الكردينال داخله شيء من
الريب فتحول الى صديقه ومستشاره الكونت كالويسترو واخذ
رأيه في الأمر بعد أن باح له بالحمية وكان كثيراً ما ينبيء الكردينال
بما يتراءى له من مستقبله . فاستقدم الكونت الارواح بحضور
الكردينال ذات ليلة وسألها رأيها فقالت ان الامر جدير بمكانة
الكردينال وان العاقبة حسنة وانه يضمن صداقة الملكة بخدمتها
ولا يلبث ان يتمكن من خدمة فرنسا والعالم بكائه ومعارفه عن
طريق رضى الملكة وعطفها . وعند ذلك تلاشى كل ريب من
خاطره واسرع فذهب الى (بوهمر) الجوهرى وافهمه انه يريد
ان يشتري العقد باسم الملكة واطلمه على تفويضها المكتوب بخط
يدها ودفع له ستمائة الف فرنك نقداً فدفع الجوهرى العقد الى
نيافته وكان ذلك قبل الحفلة الكبرى بيوم واحد وقد ارادت
جلالته ان تزين عنقها به في تلك الحفلة وتقرر ان يحضر رسول
امين من الملكة فينقل العقد اليها من منزل الكونتيسة . ثم ان الكونتيسة
سألت الكردينال ان يكون حاضراً ساعة تسليم العقد بشرط ان
يختبئ فلا يراه الرسول

وبناء على هذا الاتفاق ذهب الكردينال الى قصر الكونتيسة
مساء اول فبراير سنة ١٧٨٤ وبميتته خادم مؤتمن يحمل العقد في
علبته . ولما وصل نيافته الى باب القصر تناول العقد بيده ودفعه الى
الكونتيسة فسارت بالكردينال الى زاوية خفية مجاورة لغرفة جلوسها
وبين الزاوية والغرفة نافذة زجاجية ليتمكن الكردينال من مشاهدة

ما يجري ولكن بغير وضوح تام . و بعد قليل فتح الباب الكبير وقال قائل :

— في خدمة جلالة الملكة

ودخل رجل في ملابس خدام الملكة وكان الكردينال قد رآه مراراً لدى الكوننة واخبرته انه موضع سر جلالها . وما لبث الرجل ان طلب العقد باسم سيدته فتناولته الكوننة ودفعته الى الرسول فاحنى شاكراً وانصرف . وفي تلك الدقيقة شعر الكردينال بسرور تام لانه أدى خدمة الملكة فرنسا زوجة الملك ووالدة ملك فرنسا العتيدي ليس فقط في مساعدتها على مشتري العقد بل لانه انقذها ايضاً من الاضطرار الى التماس هذه المساعدة من أحد رجال البلاط

فقال رئيس المحكمة : — والآن ارجو من نيا فتكم الجواب على ما يأتي : هل شكرتكم الملكة ماري انتوانيت شخصياً على الخدمة التي اظهرتم انكم قدمتموها لها وما الذي تم بشأن الاقساط التي تعهدت الملكة بتسديدها ؟

— منذ انجزت هذه الصفقة لم أصادف الا العناء والتكدير والاهانات وهي جزائي الوحيد . فان الملكة من ذلك الحين أعرضت عني اعراضاً تاماً فلم توجه اليّ لفظة واحدة بل انها لم تلبس العقد في الحفلة مع انها أرسلت فاخذته قبل مواعدها بليلة واحدة ولما بينت شكواي للكوننة تفضلت جلالتها فارسلت اليّ تذكرة قالت فيها انها وجدت العقد أثمن من ان تلبسه في ذلك الاحتفال وانه يستلقت نظر الملك والجمهور . فلم يداخني ريب الى ان ازف

اليوم الذي وعدت الملكة ان تدفع فيه القسط الاول فلم يصلني خبر منها ولا هي خاطبت الجوهري بهذا الشأن فداخلني الريب عند ذلك واستولى عليّ خوف عظيم وللحال استدعيت الكونتة وسألتها حل هذا الاشكال فقالت انها كانت قادمة اليّ لتخبرني بناء على اشارة الملكة ان بعض النفقات المتاخرة حالت دون تسديد السمائة الف فرنك التي دفعتها أنا لبوهمر وانها مضطرة الى الاكتفاء بدفع فائدها البالغة ٣٠ الف فرنك فقط وان جلالتهما تسألني الرضى بذلك الآن والوثوق هن التفاتهما ورضاها فصدمت الرواية وابلغت الملكة انني خدمها الامين ثم وعدتني الكونتة باحضار المال غداً . وفي غضون ذلك حدث ما أعاد الي الريب في صدقها فاني زرت دوقه بوليناك وفيما أنا لديها جاءتها رسالة من الملكة فسألتها ان اري خط جلالتهما فاجابت طلبي و

ثم انقطع الكردينال عن الكلام ولزم الصمت وحنى رأسه وأخذ يحرك فيه كأنه يصلي

وساد الصمت على الحاضرين الى ان عاد فرفع رأسه فقال الرئيس :

— رأيت يا حضرة الكردينال رسالة الملكة فهل كان خطها مثل خط الرسائل التي جاءتك ؟

فاجاب الكردينال متأماً : — لا . لا . بل كان خطها يختلف كثيراً وانما في التواقيع بعض الشبه ولكن امضاء الملكة في رسالتها الى الدوقة كان « ماري انتوانيت » فقط وليس « ماري انتوانيت من فرنسا » كما في رسائلها اليّ فاسرعت الى منزلي ولبثت أنتظر

قدوم الكونتة على أحر من النار . فجاءت باسمه الثغر ودفعت الي ثلاثين الف فرنك فبينت لها تخوفي وظنوني فذعرت في اول الامر واضطربت قليلا ثم قالت ان الرسائل لم تكن بخط يد جلالتهـا وانها انما القتها على من كتبها الا ان التوقيع توقيعها وانها تقسم بصحة ذلك فعاد الي روعي وسكن اضطرابي و بعد انصرفها بقليل جاءني الجوهرى (بوهمر) وأخبرني ان الملكة لم تدفع له مالا وانه طلب الثمن من جلالتهـا مراراً كتابة فلم يحصل على جواب ولم يفلح في مقابلتهـا فخطب اكبر وصيقات جلالتهـا وهي مدام دي كامبان وانه عائد الآن من عندها فاخبرته ان العقد ليس في حوزة الملكة وان الكونتة لاموت لم تقابل جلالتهـا ولا مرة وان احد الناس قد خدع الجوهرى وانها ستسرع الى الملكة في التريانون لتطلعها على هذه المكيدة . هذا ما حدث يوم الخميس . فلما كان يوم الاحد ذهبت الى فرسايل لاقامة القداس فحصل ما تعلمونه الآن وهذا كل ما لدي

فقال الرئيس : — انني اشكر نيافتكم على الصراحة التي ابدىتموها ولا ريب انكم شعرتم بتعب فعودوا الى الباستيل فنهض الكردينال وانحنى للمجلس فوقف جميع القضاة وردوا التحية بمثلها (١)

و بعد ان انصرف الكردينال قال الرئيس : — احضروا المتهمه كونتة لاموت فالوى

فتحوالات الابصار الى الباب وما لبثت ان ظهرت سيده نحيلة

(١) الحابث تاريخي راجع (مذكرات الاب جيورجيل) مجلد أول

الجسم حسنة القوام في اجمل زينة واحسن ثياب وقد ازدانت
رأسها بالازهار وعلى ثغرها ابتسامة هزء واستخفاف حتى وصلت
الى المكان المعين لها بين مظاهر الغضب والاسهجان من الحاضرين
فقلت بصوت رنان :

— ايها السادة . هل نحن في دار تمثيل يقابل الممثل فيها
بالاستحسان او الاسهجان ؟

اما الرئيس فانه أهمل سؤالها و اشار الى الحاجب اشارة فهمها
وما لبث ان احضر كرسيّاً من الخشب نزلت عن جانبه سلاسل
حديدية فوضعها بجانب المرأة وقال لها :

— اجلسي

— كيف هذا ؟ ومن يجبراً على تقديم كرسي المجرمين اليّ
— اجلسي . هذا كرسي المجرمين وهذه السلاسل نقيدها بها من
ابن الجلوس مختاراً
فلما امتنعت غاضبة قال :

— اذا لم تجلسي استدعي البوليس فيجبرك على الجلوس و يضع
السلاسل حول ذراعيك فلا تستطيعين القيام
فأجالت بصرها فيما حولها ورأت من التضاة والحاضرين جميعاً
مظاهر الاستياء منها والنقمة عليها فرفعت رأسها بانقة وابتسمت
ابتسامة الاستخفاف بكل شيء وجلست فقال الرئيس :

— من أنت أيتها السيدة وما اسمك وكم عمرك ؟
فقهقهت الكوثة ضاحكة وقالت :

— يظهر يا حضرة الرئيس انك لم تألف مخاطبة السيدات

كثيراً والامسا سمحت لنفسك ان تسال سيدة مثلي في عنفوان شبابها عن عمرها . فانا اتساع لك فاعذرک واتجاهل سؤالك هذا لأرد على سائر اسئلتك . اما اسمي فهو الكونتنة لاموت فالوى الفرنسية وية آخر سلالة ملوك فرنسا الاولين . ولوشمل العدل هذه البلاد التي تولاهها ملك احمق وملكة رعناء لكننت الآن جالسة على عرش فرنسا ولكانت المرأة المالكة الآن جالسة محلي في مجلس المجرمين تدافع عن نفسها في السرقة التي ارتكبتها لان جواهر (بوهرم) لدى ماري انتوانيت وليست لدى

فتمال الرئيس : — انت كاذبة في جوابك اذ تزعمين انك سليلة ملوك فرنسا الحقيقية ان اباك كان قروياً فقيراً في قرية (اوتوبل) يدعى (فالوى) وروى كاهن القرية لمدام دي بولا نقيليير صاحب الغرنية ان لدى القروي فالوى بعض اوراق عائلية يظبره انها ابن طبيعي من سلالة العائلة المالكية القديمة وسألها الكاهن ان تعطف على اولاد القروي في جوعهم وفقيرهم فاستقدمت اليها ابنة فالوى . وحقيقة الامران آخر رجال عائلة فالوى كان مژوراً فاعدموه فجدك الاكبر هو الابن الطبيعي لهذا المزور وهذه كل علاقتك بعائلة ملوك فرنسا القدماء ولما جاءت ابنة فالوى الى مدام بولا نقيليير ولها من العمر ١٢ سنة رضيت عنها وتولت تربيتها وبعد قليل هجرت الفتاة منزل السيدة مع ضابط يدعى الكونت لاموت وتركت رسالة قالت فيها انها سئمت حياة العبودية ولعنت الذين ارادوا أن يمنعوها عن تحب واعترفت انها سرقت نقود السيدة وقدرها ٢٠ الف فرنك

— اخطأت يا حضرة الرئيس فاني لم أسرق المال ولكنه
المهر الذي وعدتني به بدليل انها لم تطالبني ولم ترفع امري
الى القضاء

— ذلك لانها أثبت الفضيحة فتركت عقوبتك للقاضي العادل
الجالس في السماء

— ولا أظنه ترك مجلسه في السماء ليجلس في كرسي الرياسة هنا
فلم يحفل الرئيس بكلامها واستأنف بيانه فقال :
— وبعد ان زفت ابنة القروي الى الضابط لأموت أراد ان
يرفع مركزه وان يزيد قدرته بوسائل مختلفة . فكان يدرس الفروسية
والمبارزة وكان بارعا في لعب الورق حتى انه لم يخسر مرة واحدة
ولما ظهرت حيلته طردوه من فرقته فسعى مع زوجته وراء رزق
آخر فذهب الرجل الى جنوبي فرنسا ليوصل المقامرة وجاءت
زوجه الى باريس ورأس مالها جمالها واسمها الشريف . هذه ترجمة
حياتك على حقيقتها

— وفاتك يا حضرة الرئيس انني صديقة الكردينال ديروهان
وموضع ثقة الملكة ماري انتوانيت وقد عزمنا الآن ان يجعلاني ضحية
ما فعلناه . ولا ذنب لي الا انني ساعدت الملكة على احراز الجواهر
وساعدت الكردينال المفتون على التقرب من معشوقته وسهلت له
مقابلة الملكة . والكردينال لا ينكر انه قابل الملكة في حديقة
فرسايل وانه قبل يدها وانها اعطته ورقة وستضطر الملكة الى
الاعتراف بان العقد في حوزتها . فاي ذنب لي بعد هذا ؟

— ذنوبك لا تحصى فهي الخديعة . الكذب . التزوير والوقيعه .
فتمد خدعت الكردينال بزعمك انك تعرفين الملكة وانك صديقتها
وموضع ثقتها وزورت امراً وأغربت سواك على تزوير خط
الملكة ودفعت الى الكردينال رسائل تزعمين انها من الملكة وحملت
الكردينال على الاعتقاد ان الملكة تريد ان يشتري لها العقد فلما تم
كل ذلك ارتكبت جريمة السرقة لان الملكة لا علم لها بشيء من
أمر العقد ولم تتشرفي بمقابلتها على الاطلاق ولا خاطبتك بكلمة
واحدة ولم يرك واحد من اعوان الملكة

— اذا هم ينكرون كل شيء ولكن الحق يعلو ولا يعلى عليه
ولن ينكر الكردينال ان الملكة سمحت له بمقابلتها في فرسايل وانها
شكرت له صنيعه في مشترى العقد

— ستظهر الحقيقة بدون ريب فانا أدعو الآن النائب العمومي
المسيودي بوريولون ليجاهر بدعواه على كونته لاموت فالوى
فنهض النائب العمومي وألقى خطبة بين فيها مساعي المرأة
وحياتها ووصف معيشتها السافلة اولاً وانها كانت ترسل رسائل
الاستجداء الى الاعيان وخصوصاً الى الكردينال المعروف بكرمه
وسخاء يده وكيف ذهب اليها في منزلها الحقير وكيف اعتنى بها
حرصاً على كرامة ملوك فرنسا وكيف خدعته بدعوى علاقتها مع
الملكة ثم قال :

— اما الكردينال فتمد وثق بجميع ما قالته له الكونته ولم
يخطر له انه ألوبة في يد هذه المحتالة التي استمدات من شهامته
نفدته وكانت تعلم اخلاصه للملكة وشكواه من استخفافها به

جهازاً ثم علمت بامر العقد الذي طالما عرضه بوهر على جلالته
فابت ان تشتريه فدبرت حيلتها وكان النجاح حليفها . فحملت
الكردينال على الاعتقاد ان الملكة تسمح له بمقابلتها اذا هو أثبت
اخلاصه فكان واسطة لمشتري العقد . وتم الامر على ما بينه نيافته
بصراحة واخلاص . فاتم المشتري ودفع القسط الاول وقدره
ستمائة الف فرنك وأعطى العقد الى صديقة الملكة الكونتة لاموت
بعد ان ساعدته على مقابلتها وقالت له الملكة انها استلمت العقد
واكدت له رضاها . وجاءته الكونتة رسالة شكر من جلالته
فاتبهج نيافته لنجاح مساعي الكونتة وأراد ان يكافئها فرتب لها
معاشاً سنوياً كل حياتها قدره اربعة آلاف فرنك فقبلته شاكرة
بينما هي تحتال عليه وتفرح لنجاح حيلتها وكان زوجها شريكاً لها
في مساعيها اذ كانت قد استقدمته الى باريس واصبحت غنية
فملاّت قصرها بالرياش الثمين واحاط بها جيش من الخدم والاعوان
وكان زوجها قد استدعي لاعمال خاصة الى لندن فكان يواصلها
بالتحف والهدايا وواحدة منها بلغ ثمنها ٢٠٠ الف بنتو . ثم عاد من
لندن اخبرها انه اشترى قصرأ جميلاً في (بارسور اوب) واليه نقلت
جميع ما بمنزلها المأجور . وجميع هذه الثروة جاءتها من طريق
العقد فانها حلت الحجارة وباعت الصغيرة منها في باريس واما
الحجارة الكبيرة فباعها زوجها في لندن ومع كل هذه الثروة والابهة
لم يخطر للكردينال اقل خاطر سيء بشأنها لانها كانت متى زارها
تستقبله في غرفة صغيرة حتميرة من غرف المنزل وكانت ملابسها
بسيطة قليلة الثمن وكانت تقول له ان سيدة غنية تقيم في المنزل

وقد سمحت لها بالاقامة في الغرفة الصغيرة . فلما خافت من افتضاح امرها زارت الكردينال مودعة زاعمة انها ذاهبة للاقامة مع صديقة لها خارج العاصمة ولكنها انتقلت الى قصرها الجديد وفما هي هناك علم البوليس السري ان السيدة المثرية الشريفة انما هي المحتالة لاموت فالوى وقبض على زوجها وشريكه المدعو كونت كاليوسترو وفر سائر انصارها فلم نهتم باقتفاء آثارهم لان الحقائق واضحة لا تحتاج الى اثبات فان بعض الجواهر التي باعها زوج الكونتة في لندن اعيدت الى باريس وعرفها الجوهرى بوهر . واهتدينا الى الصايغ الذي اشترى من الكونتة ذهب العقد ولا ريب انها تمكنت بالحيلة من الحصول على العقد والانتفاع بشمنه فهي اذا سارقة ومحتالة . فضلا عن انها مزورة لانها زورت خط الملكة وزورت توقيع جلالتها فهي مزورة وقد تجاسرت على تقليد توقيع الملكة وجرا اسم جلالتها المقدس الى حبال حيلتها واعمالها المنكرة

فقلت الكونتة : — كل هذه الاقوال لا قيمة لها الا اذا أيدها البرهان . ولدي البراهين على براءتي . فان الكردينال قابل الملكة واعطه وصلا بالعقد . ولا ذنب لي اذا كانت قد غيرت توقيعها وانما هذا دليل على براءتها في الاحتيال . على اني اشهد الله انني بريئة وعلى الملكة ان تثبت انها لم تقابل الكردينال في حديقة فرسايل وانها لم تضع توقيعها على التعهد والتحرير المرسلة الى نيافته واذ ذاك يجوز اتهامي فما دامت لا تنفي هذه الحقائق بالدليل فان الله العادل لا يسمح باتهامي وانا بريئة

فقال النائب العمومي : — صدقت فيما تقولين فان الله لا يسمح
باتهام الابرياء ولذلك قد فضح حيلتك . واما النقاب عن
خديعتك وسأتيك بالبراهين الحية الناطقة . أيها الحاجب ادخل
السيدة التي تنتظر في الغرفة المجاورة

وبعد قليل عاد الحاجب فقال : — ان السيدة تستأذن
المجلس لانها ستأخر بعض دقائق . وبما انها ستفارق طفلها مدة
التحقيق فهي تريد ان ترضعه

فوافق المجلس على الانتظار وخضعت الشريعة لصوت الطبيعة
وانتظروا جميعا ريثما تتمكن الشاهدة من ارضاع طفلها . وبعد
قليل فتح باب غرفة الشهود وظهرت امرأة فدعر القضاة والجمهور
ودهشوا لمنظرها

ان الملكة نفسها قد جاءت . فانهم رأوا في المرأة الداخلة عليهم
قوام الملكة ووجهها بجماله الفتان وفمها الصغير ووجهتها العالية
وشعرها الجميل بتسريحتها المشهورة وعليها ملابس الملكة التي تلبسها
في حدائق فرساي . فدهش الجمهور وهمس بعضهم « لقد جاءت
الملكة بنفسها لتقديم شهادتها » اما الكونتة فانها نهضت عن كرسيها
مدعورة فقال الحاجب : — لماذا تنهضين عن كرسيك ؟

— انما نهضت لاقدم تحيتي للملكة فرنسا كما يجب على واحدة
من رعاياها ولكنني لا أرى سواي فعل فعلي فهم قد لموا بحالهم
محضور جلالتها ولذلك سأقتدي بهم

اما الرئيس فانه قال للمرأة الداخلة : — تقدمي ايها السيدة
وما اسمك ؟

— لقد كنت يا سيدي فتاة مغرورة اكره العمل واحب البطالة والاسراف ممأ واميل الى الثياب الحسنة الى ان عشقت الضابط جورج فعدلت الى حياة الفضيلة ولما ولد ولدي الصغير بذلت جهدي لأكون زوجة امينة وامأ صالحة . وقد كنت ادعى حتى الآن (الآنسة اوليفا) فقبضتم عليّ في بروسل قبل موعد زواجي الرسمي بثمانية أيام وكان جورج قد وعدني ان يعقد قراننا رحمة بولدي ولكنكم اساتم اليّ فولد ولدي في السجن اثناء غياب والده وسوف تعترفون انني بريئة فتعطوني شهادة ببراءتي انصافاً لي لدى ولدي متى اخبرته انه ولد في السجن فاسمي الآن الآنسة اوليفا ولكن حالما يطلق سراحي ازف الى زوجي فيصير اسمي مدام جورج

فقالت الكونتيسة بصوت خشن :

جلالتك تمثلين اليوم دور القروية الساذجة ومشهور عنك ولعلك بتمثيل الادوار فلا تنظري اليّ يا ملكة هذه النظرات واذكري انك جئت سراً من فرسايل لتصوني شرفك وتحافظي على جواهرك

فقال الرئيس للحاجب : — اذا عادت المتهمة الى الكلام قبل ان تسأل قيدها بالسلاسل وسد فمها ثم خاطب المرأة قائلاً : — والان هل تعرفين المرأة الجالسة هنا (مشيراً الى الكونتيسة)

— نعم أعرفها ولا اعرف اسمها وانما اعلم انها تقيم في قصر نخم وانها ذات ثروة طائلة ولديها كل ما تشتهي

— وكيف توصلت الى معرفتها

— كنت ذات يوم سائرة في (باليه رويال) فجاءني رجل طويل القامة كان قد راقبني مراراً وخطبني بلطف ثم سألني ان اسمح له ان يزورني فأجبتته الى ما يريد اذا هو اخذني الى اقرب مطعم وسد جوعي فلبى طلبي وتغدينا معاً ثم افترقنا على موعد الى الغد وفي الغد بعد العشاء اوصلني الى منزلي وهناك اخبرني انه من ذوي المكانة والنفوذ وله اصدقاء في البلاط وانه صديق خاص للملك والمملكة . وانه يأتيني باصدقاء عظماء وانه روى امري لسيدة ممتازة وانها ستزورني . ثم عاد في الغد ومعه سيدة حيتني بلطف وتودد واطهرت دهشتها لما وقع بصرها عليّ

— ومن هي تلك السيدة

— هي الجالسة على الكرسي امامكم . وزارتني مراراً واخبرتني عن المملكة ومعيشتها الهنيئة في البلاط ووعدت ان تأخذني الى البلاط وتجعلني سيدة عظيمة اذا انا فعلت ما تريده مني . فوعدتها بذلك وان اكون طوع اشارتها اذا هي ارسلتني الى البلاط لاختاطب الملك والمملكة وانما أردت الوصول اليهما لان الملك يستطيع ان يرقي رتبة زوجي ولما كان مشهوراً ان الملك لا يخالف للمملكة أمراً أردت ان استميتها اولاً الي

— وهل شرحت كل هذا لهذه السيدة ؟

— نعم . فوعدتني خيراً اذا انا فعلت كل شيء تأمرني به باسم المملكة . ثم قالت لي ان المملكة امرتها ان تنتقي شخصاً موافقاً

ليلعب دوراً في رواية تهيتها جلالتها سرّاً وان اختيارها وقع علي وان لا اخبر احداً من الناس بل اكتم ذلك حتى عن جورج متى عاد من بروسلا واذ ذاك تكون نصيرتي في المستقبل فضلاً عن انها تعطيني ١٥ الف فرنك وقد اكدت لي الكونتيسة ان كل ذلك يجري بامر الملكة وان المال من جلالتها فاطمأن خاطري لان الملكة لا تأمر بعمل ما لا يجب عمله وقالت الكونتيسة ان الذي تريده مني هو ان انوب عن امرأة اخرى وان ادع عاشقاً يتوهم انه مع معشوقته فرضيت هذا الدور السهل

— اما خطر لك ان تعرفي اسم السيدة التي تمثلين دورها
— اردت ذلك ولكن الكونتيسة منعتني عن كل سؤال وان لا ابحث عن شيء او اخسر نصف المبلغ المقرر فضلاً عن انهم اذا لاحظوا انني اعرف شيئاً أرسلوني الى سجن الباستيل فلم اهتم بشيء بعد ذلك واكتفيت بدرس دوري والاجادة في تمثيله
— اذاً لقد اعطوك درساً

— نعم فان الكونتيسة والرجل الذي جاء بها زاراني مراراً وعلماني كيف امشي وكيف ارفع رأسي وكيف احنيه وابسط يدي للتقبيل . وبعد ان فرغنا من تعليمي كل هذا زاراني ذات يوم واركباني عربة فخمة الى منزل الكونتيسة فتناولت العشاء معها وسرنا الى فرسايل فشيئا معي في الحديقة حتى اذا وصلنا الى قرب الكشك وقفنا وقال لي « هنا تمثلين دورك الصغير غداً وهي البقعة التي اختارتها الملكة وكل ما يجري يكون بامر جلالتها الخاص »

فعدت الى باريس معها وابقاني تلك الليلة في منزلها الجميل

وفي الغد اخذاني في عربة الى فرسايل وللكونتة منزل هناك فتولت الكونتة بنفسها العناية بملابسي كأنها وصيفتي

— وما نوع ملابسك يومئذ

— مثل الذي انا فيه الآن . انما لما فرغنا وقد اقبل الليل غطتني

الكونتة برداء ابيض وسترت راسي بقمعة واركتني عربة فسرنا الى الحديقة فاعطتني رسالة وقالت « اعطي هذه الرسالة للرجل الذي يقابلنا » ثم سرنا في تعاريج الحديقة

— وهل ذهبت مع الكونتة فقط او رافقكما غيرها

— رافقنا الرجل الذي كان سبب تعارفنا والذي أظنه زوج

الكونتة . وبعد ان سرنا مسافة وقف وقال « الآن يجب أن تسيري وحدك ولاكنني سأحضر في الوقت الموافق وأحدث حركة تستوجب انصراف العاشق » ثم ابتعد عنا فبقيت مع الكونتة فاعطتني وردة وقالت « عليك ان تعطي هذه الوردة مع الرسالة الى الشخص الذي ستقابلينه ولا تزيدي شيئاً على قولك » انت تفهم المراد من هذا « وقد سألتني الكونتة ان اكرر تلك العبارة سم قالت « لا تزيدي عليها حرفاً واحداً . فان الملائكة نفسها اختارت هذه الكلمات وستسمعك لانها تكون واقفة من ورائك وترى كل شيء » وبعد ان اوصلتني الى محل معين انسحبت وما لبث ان ظهر رجل فبرزت له من مخبئي فبعد ان حياني باحترام عظيم وانحناء كثير دفعت اليه الرسالة والوردة وأعدت على سمعه الكلمات التي تعلمتها من الكونتة فركع الرجل امامي وقبل يدي التي سلمته الوردة واذ ذاك سمعنا وقع أقدام واقبلت الكونتة مسرعة فقالت

« بالله عجلي فانهم يراقبوننا . تعالي حالا » وجرتني بسرعة فتركنا الحديقة وعدنا الى منزل الكونتة فتركاني وحدي وقالوا انهما يذهبان الى تسليمة العاشق على قصر المقابلة وقالت لي الكونتة ان الملكة رأته وسمعت كل شيء وكانت راضية وعدنا صباح الغد الى باريس فلما وصلنا الى منزل الكونتة نقدتني المبلغ المتفق عليه تماماً ولكنها اشترطت عليّ ان اذهب حالا الى جورج عشيقتي وان ابقى في غرفة صغيرة الى حين سفري وللحال كتبت الى جورج انني ذاهبة اليه وحالما جاءني الرد ركبت عربة نخمة خاصة الى بروسل ودفع زوجها الاجرة كاملة

— أليس عندك غير هذه الافادات ؟

— ليس لدي الا ما تعلمونه من ان البوليس قبض عليّ في بروسل بعد حادثة فرسايل باسبوعين وجاء بي الى باريس وانني توعدت بالانتحار اذا لم تسمحوا لجورج ان يزورني في سجنني يومياً وان طفلي ولد في السجن منذ نصف سنة فاسمحوا لي ان اعود الى ولدي

فصرفها الرئيس وعاد الى سؤال الكونتة فبقيت على اصرارها فامر باستدعاء الشاهد الآخر فادخلوا رجلاً فمأهه الكونتة حتى ذعرت وصاحت :

— راتودي فيليت ؟ يا للعار وأنت ايضاً تخونني فقال الرئيس : — رأيت عدل الله ؟ فان ضميرك يضطرك الى الاعتراف بذنبك

— كلا انني لا اعترف بذنبي وانما اضطربت لما رأيت هذا

الرجل الذي أنقذته من الجوع وشملته بالخير قد جاء به خصومي
ليشهد ضدي ولكنني مستعدة لسماع اكاذيبه

ولما سئل الشاهد الاسئلة العادية اجاب انه يدعى رانودي
فيليت وانه كان سكرتير الكونتة ووكيلها فلما قبض البوليس على
الكونتة وزوجها اركن الى النرار فاقام في جنيف ثم حاول الفرار الى
انجلترا فقبض عليه وانه انما حاول الفرار حتى لا يدخل في قضيتها
فقال التماضي : — وما سبب خوفك

— خفت لانني ارتكبت خطأ عظيماً واستسلمت لحيلة
الكونتة ووعودها . فقد كنت فقيراً لا شأن لي وأحببت ان
اكون شيئاً مذكوراً فوعدتني الكونتة خيراً وانها تحمل الكردينال
على رفع منزلي وانها تقدمني الى البلاط وبواسطتها اصير غنياً
عظيماً فوثقت بها وصرت اطوع لها من بناتها
وماذا فعلت في خدمتها ؟

— كتبت التحارير الموجهة الى الكردينال وكانت هي تلقي
نصها عليّ وانا اكتبها بمثل خط الملكة
— وكيف عرفت خط الملكة ؟

— اعطتني الكونتة كتاباً طبع في صورة رسالة بخط
جلالته فنقلت الحروف حتى احسنت تزويرها ثم كتبت الرسائل
— وهل تعلم شيئاً عن الكبيالات التي أعطيت الى الجوهري
بوهمر ؟

— نعم فأنني كتبته بيدي عملاً بإشارة الكونتة وذيلتها بالامضاء
— ومن اين لك صورة الامضاء ؟

— من التحرير المطبوع

— وهل كان في ذلك التحرير امضاء الملكة الذي قلده انت ؟

— لا . وانما كان فيه اسم « ماري انتوانيت » فظنت الكونتة

ان هذا التوقيع هو توقيع جلالتهما في رسائلها الخاصة (والتحرير

المطبوع منقول عن تحرير ارسلته الملكة الى والدتها) ولا بد من

صيغة رسمية في الكتابات الرسمية و بعد مناقشة طويلة تقرر ان

نجعل التوقيع « ماري انتوانيت من فرنسا »

فصاحت الكونتة : انه كاذب

فقال الشاهد : انني اؤيد اقوالي فاذا سمحتم لي بادوات

الكتابة اكتب امامكم ذلك التوقيع تماماً

وفعلا كتب التوقيع ودفعه الى الرئيس فبعد ان اطلع عليه

جميع القضاة وقف الرئيس وقال :

— اعتقد ان الكتابة صحيحة مطابقة للتحرير المزورة وقد

اثبت الشاهد انه كاتب تلك الرسائل وانه فريسة الكونتة المحتالة

فارجو ان يقف القضاة الذين يرون رأيي

فوقفوا جميعاً . وصاحت الكونتة واغمي عليها فقال الرئيس

وقد رفع القبة عن رأسه :

— اعلن ختام التحقيق . فلتنقل المتهم والشهود وليخرج

الجمهور . اننا ننتقل الى غرفة المشورة والحكم يصدر غداً

الكتاب الثاني

الفصل السابع

نذير الشؤم

في مساء ٣١ اوغسطس سنة ١٧٨٦ انتظر اهالي باريس صدور الحكم في قضية الكردينال وتجمهروا حول المحكمة ينتظرون و يصيحون وامثال (مارات) من خطباء الفتنة يثيرون عواطف العامة ضد الملكة ومع الكردينال وبين هذه الجماهير شاب قوي زاحم القوم بعنف حتى وقف عند باب المحكمة ينتظر . وبعد قليل فتح الباب وخرج رجل من الحجاب فتجمعوا حوله يسألونه عن الحكم فاجابهم :

— لا اعلم ولكن الضابط يأتي قريباً . اما انا فاسمحوا لي ان اذهب سريعاً الى منزلي فقد انهكني التعب واضناني الجوع وساعده الشاب الذي اشرنا اليه فقال : — ألا تبصرون حالته ايها الناس . دعوه يذهب وهات يدك ايها الرجل وتوكل على وفعلاً تناول ذراع الرجل وافتتح له طريقاً بين الجماهير وانصرف الناس الى الاهتمام بمراقبة باب المحكمة فلما ابتعدا قال الشاب :

— وهل صدر الحكم ؟

— نعم يا مسير طولان فان المستشار اعطاني الورقة التي عليها صورة الحكم بينما كنت اقدم له كأس ماء

١. فاخذ طولان الورقة وترك الرجل وانصرف في طريق آخر الى ان لقي فتى يحرس جواده منذ ثمانى ساعات فشكره وأجزل له العطاء وصرفه بعد ان اوصاه ان يبايع سلامه الى خطيبته ثم ركب جواده واسرع قاصداً فرسايل حيث كانت الملكة تنتظر خبر الحكم بفارغ الصبر فلما وصل طولان استقبلته اولاً مدام كعبان وعلمت منه انه قطع مسافة ١٨ ميلاً في ساعة . فقالت له : ساخبر الملكة انني علمت صورة الحكم منك . فقال : ارجو أن لا تفعلني فربما كان فيه ما يسوءها سماعه ولا اريد ان اكون نذيراً بالشر الى جلالته

— اذاً أنت لم تعلم ما في الورقة التي اتيت بها ؟

— لا يا سيدتي لا اعلم فان والد خطيبتي وهو أحد المستشارين ارسلها الي فلم اجرأ على مطالعتها لئلا يكون فيها ما يكدر جلالته وكان كل همي ان اعجل في نقلها اليها . خذي الورقة يا سيدتي الى جلالته واسأل الله ان لا يكون فيها ما يزعج خاطرها . ثم اسمحي لي ان اعود الى باريس فان خطيبتي تنتظرني فضلاً عن انهم يحشون حدوث اضطراب هناك فيجب ان اذهب لاصون عائلتي — اذهب يا صديقي ولك شكري القلبي على اخلاصك وتأكد انني سأبلغ ذلك الى الملكة فاذهب بالسلامة

واذ ذاك ظهرت ماري اتوانيت من وراء الستار باسمه وقالت :

— لا . لا . لا تذهب بل ابق لتقبل من ملكتك نفسها شكر قلبها لاخلاصك وغيرتك في سبيل مصالحها هذا اليوم فصاح طولان مدعوراً : — الملكة ؟ وركع عند قدميها بوقار واعجاب وواجبا تأثرها فتالت :

— لست اشكرك فقط لانك جئتني بخبر عظيم الالهية بل لانك أقنعتني أيضاً ان ملكة فرنسا لا يزال لها اصدقاء امناء فانا اشكرك يا مسيو طولان

فعلم انها تصرفه ونهض حتى اذا وصل الى الباب عاد فركع ثانية ورفع رأسه وقال بصوت جهوري :

— اشكرك يا إلهي من اجل نعمة الابتهاج التي أجزلتها لي هذه الساعة . ومن هذه الدقيقة اكرس نفسي لخدمة ملكتي . واسفك من اجلها دمي واقسم بالله على صحة ما اقول

ولما انصرف الشاب قرأت مدام كبان الورقة واذا فيها ما يأتي :
اولاً : اعلنت المحكمة ان الرسائل والتواقيع مزورة وليست
خط يد الملكة

ثانياً : حكم على الكونت لاموت بالاشغال الشاقة مؤبداً
ثالثاً : حكم على المرأة لاموت ان تجلد ويرسم على كتفيها
حرف (O) وان تسجن مؤبداً

رابعاً : حكم على راتوردي فيايت المزور بالنفي من فرنسا
خامساً : حكم ببراءة الآنسة اوليفا واطلاق سراحها
سادساً : حكم ببراءة الكردينال من كل تهمة وابعح له
نشر براءته

فوقفت الملكة مضطربة وقالت : هذا ما كنت اخافه فقد ذهبت الملكة فريسة للدسائس انهم برأوا الرجل الذي أهان الملكة فاشفق عليّ يا كمبان . لا . بل انا اشفق على فرنسا لانه اذا كنا لا نضمن عدل القضاة في امر يسوء سمعتي كيف نضمنه متى حوكم الانسان على امر يتعلق بشرفه وسعادته ^(١)

الفصل الثامن

قبل الزواج

غصت الدار بالمدعوين الى حفلة زفاف الأنسة مرغريت كريمة المستشار بوجو الى المسيو طولان ولبست الفتاة ثوب العرس وتهيأت لاقتيال بركة الاكديل واذا بالمسيو طولان قد اقبل وسأل والدتها ان تتركه مع عروسه قليلاً فلما انفردا قال طولان :

— نحن الآن وحدنا وقد اوشكنا ان يعقد لنا ذلاً ارى بدأ من الصراحة ذلاً تبقى اسرار بيننا . فاعلمي ايها العزيزة انني احبك حباً جماً ومع ذلك فانهني احب امرأة اخرى — ومن هي ؟

— الملكة ماري انتوانيت

فسكن روع الفتاة لانها هي ايضاً تحب الملكة ثم روى لها طولان السبب الذي من اجله احب الملكة هذا الحب قال :

— كان ابي ضابطاً في الجيش الفرنسي وله فعال جميلة فانعم

(١) كلمات الملكة . راجع (مذكرات مدام دي كامبان مجلد ٢ ص ٣)

عليه بوسام القديس لويس ولكن بعد ان قطعوا ذراعه وفصلوه
عن الخدمة امسى فقيراً لا يقوى على العناية بالدي وبني فاحسن
ظنه بالملك وبعد وفاة والدتي اخذني الى باريس ليرفع امره الى
الملك وقد مشينا كل الطريق الى باريس وكان احياناً يحملني على
ظهره متى انهكني التعب الى ان بلغنا فرسايل فذهبنا الى البلاط
وابي يحمل عريضته وكنا نقف هناك كل النهار فلا تسبح لنا
فرصة ولا نحصل على جواب لأن امثالنا كثار العدد الى ان حضر
الملك ذات يوم وتناول عريضة ابي بابتسامة فكنا نتردد على البلاط
١٤ يوماً ننتظر الرد فلا نحصل عليه واخيراً عيل صبر ابي فقرر ان
يذهب لآخر مرة فان لم يحصل على جواب لعريضته يبيع وسامه
ليعولني واياه وفيما نحن ننتظر دخل الملك والمملكة على جمهور المنتظرين
واعلن الحاجب اسماء الذين اسعدهم الحظ بالحصول على جواب
من جلالته فلم نجد اسم ابي بين الاسماء . وكانت المملكة الشابة
واقفة بجانب الملك بجملها الساحر ولطفها العجيب ونظرت اليها
باهتمام ثم دنت منا وخطبت ابي قائلة :

— ايها الضابط العزيز هل قدمت عريضة للملك

— نعم يا مولاتي وبقيت انتظر الرد ١٤ يوماً

— ولم تحصل على الرد ؟ فقد رأيتك مراراً هنا مع النلام ولا

تزال تؤمل ؟

— نعم ياسيدي لا ازال اوئل . لأن على جواب جلالته يقف

موتي او حياتي

— اني اشفق عليك فان ١٤ يوماً مدة طويلة . اما وجدت
وسيطاً يدنيك ويوصل شكواك ؟

— لا وسيط لي يا مولائي الا هذا الساعد المقطوع

— اذا فاسمح لي أن اكون وسيطاً لك لدى الملك . هات

اسمك وعنوانك وارجع غداً فاني آتيك بالجواب بنفسني

فلما عدنا في اليوم التالي اقبلت الملكة وفي يدها رسالة مختومة

وقالت لأبي : — خذ هذه الرسالة وانه يسر الملك أن يحسن جزاء

واحد من خيرة ضباطه باسم فرنسا فتد عين لك معاشاً سنوياً

قدره ثلاثمائة بنتوواني لأرجو لك ولولدك حياة سعيدة . فاذهب

الى الخزينة انهم يصرفون لك الربع الأول من معاشك

ولما رأت جلاتها ان السرور تغلب على أبي امرت ان

يعتنى به فنقلونا الى فندقنا في احدى عربات البلاط . ومن ذلك

اليوم صرت عبداً لها مديناً لجلالاتها بكل شيء وكنت كلما عدت

الى منزلنا بعد ذلك اراه يقرأ المنشورات التي اذاعوها ضد الملكة

فيقول : — انها يا ولدي نجمة طاهرة بين ذئاب فاذا قدرت يوماً ما

ان تنقذها من مخالبهم فافعل . فاقسمت ان اكون خادماً اميناً لها وهو

قديم كنت اكرره كل يوم ان اكون نفساً وجسداً فدى لها . وقد

ازف الوقت لخدمتها ايها العزيزة مرغريت فان خصومها يشددون

عليها النكير ويشيرون الأمة ضدها فان الكونت دي بروفانس شقيق

الملك ناظم عليها لعناية الملك بمشورتها دون سواها والكونت دارتوا

الذي كان صديقها الوحيد جاهر بمدائه لها لأنها صانت مصالحة

الأمة فنسبوا اليها كل شر حتى نفر الشعب واصبح يزري بها في

الشوارع وفي الاوربا . اما انا فقد نجحت واصبحت مستشاراً
ولا رغبة لي في هذا المنصب الا لأخدم الملكة فانا انتظر انني من
حزب الثائرين لأتمكن من خدمتها . فانا احبك يا مرغريت ولكنني
لا اتاخر متى اقتضى الامر ان ابذل حبي وسعادتي في سبيل
خدمتها . فهل تقبليني زوجك على علاقي هذه ؟ *كلا*
— ايها الشهم العزيز انني بعد ما سمعته ازداد حبي لك .

فياجندي الملكة اجعلني رفيقة لك في اخلاصك
فشكر لها طولان موافقتها وسار بها الى حيث عقد زواجه
بعد ان تفاهما ثم انتقلا الى المأدبة التي اقامها لهما المستشار بوجو في
انغم مطاعم فرسايل اجابة لالحاح طولان فقال المستشار :
— ألا تفيدني يا ولدي العزيز لماذا انت مصر على ان يكون
زواجك في كنيسة القديس لويس دون سواها وفي فرسايل
وليس في باريس ؟

— ذلك لانني أردت ان يعقد زواجي في هذه الناحية حيث
تجتمع الامة بعد ايام في الجمعية العمومية للدفاع عن حقها تجاه
سلطة الملكية وسأكون مديناً الى فرسايل من الآن بحريتي فقد
شرفني اهلها واختاروني نائباً عنهم في مجلس العموم . ثم أردت ان
يعقد لي في كنيسة القديس لويس لانني أحب الملك لويس فهو
صديق الشعب ويريد اسعادهم اذا سمحت له الملكة بالتساوية .
وانما تظاهر طولان ببغضه للملكة لان عمه هذا كان من اعظم
خصومها فاراد ان يخذعه وقال المستشار :

— صدقت ايها العزيز ان المرأة النساوية لا تريد خيراً للشعب .
فالويل للمملكة لانها سبب جميع مصائبنا

الفصل التاسع

افتتاح الجمعية العمومية

تقرر افتتاح الجمعية العمومية في ٥ مايو سنة ١٧٨٩ وكان المراد بنوع خاص الخط من كرامة ممثلي العامة فاعدوا لهذه الحفلة قاعة كبرى في قصر فرساييل . فلما وصل نواب الشعب وجدوا لمزيد دهشتهم انهم لم يسمح لهم بالدخول الى القاعة من الباب الذي يستعمله نواب الاعيان والاكليس بل عينوا لدخولهم ممراً ضيقاً مظلماً فتجملوا هناك ولبثوا ينتظرون نحو ساعتين ثم ابيح لهم ^{pen}الدخول الى القاعة وقد نصب العرش في صدرها وبجانبه كرسي للملكة ومجالس للاميرات وامراء العائلة المالكة ومن بعدما مقعد خاص بالوزراء والى يمين العرش مجالس الاكليس والى يساره مجالس الاعيان وتجاه العرش ستاية مجلس لنواب الامة وبدأ المركز دي ليريزه يجلس هؤلاء النواب في مجالسهم بمقتضى اهمية البلدان التي ينوبون عنها . فلما وصل الدور الى دوق دورليان رآه جمهور المتفرجين وقد تنحى اكراماً لاحد الكهنة فهتفوا استحساناً لعمله وجلس سائر النواب الى أن اقبل الكونت ديراو خطيب فرنسا ولسانها الفصيح فصفق الجمهور اكراماً لرجل تنازل عن مكانته العليا بين الاعيان لينوب عن الشعب وما لبث الملك ان اقبل فصفق

الجميع سروراً . وبشارة من الكونت ميرابو وقف نواب الشعب .
ولكنهم خلافاً للعادة المألوفة لم ينحنوا . الا ان شاباً منهم انحنى
لما دخلت الملكة واذا بجاره قد شده بيد قوية وواقفه قائلاً

— يليق بنائب الشعب ان يقف منتصباً امام العرش
فاجاب طولان : — صدقت يا كونت ميرابو اما أنا فلم انحنى
للعرش بل اكرمت الملكة الحسنة

وجالست الملكة وأجالت بصرها فرأت طولان بين نواب
الشعب وهم خصومها فدهشت واستغربت واستاءت وقالت في
نفسها بمثل هذا ينجز وعده ويبر بيمينه . ولكنها لم تتأثر كثيراً لما
توهمته من خيانة طولان فقد خافها سواه حتى الفت الخيانة من
أنصارها . وادرك طولان ما جال في خاطرها فاقسم أن يحيى يوم
تندم على سوء ظنها به

و بعد قليل وقف الملك على عرشه ونزع قبعته ذات الريش
ولاحال نهضت الملكة لتصنعى واقفة لخطاب الملك فانحنى لها
جلالته وقال :

— أرجو منك أن تجلسي

فاجابت : — مولاي اسمح لي ان اقف . فانه لا يليق بالتابع ان
يجلس متى كان الملك واقفاً

فسرى بين الجمهور ضحك استهزاء فاجفلت ماري أنتوانيت كأن
أففى لسعتها وحولت بصرها الى الجهة التي كان الضحك فيها واذا
بالدوق فيليب دورليان لا تزال الابتسامة على ثغره

والقى الملك خطاب الافتتاح فلما انتهى قوبل بالتصفيق العام

جلس على عرشه واعد قبعته الى رأسه وللحال فعل فعله جميع
الاعيان فلبسوا قبعاتهم واقتدى بهم الكونت ميرابو من نواب
العامّة واقتدى به رفاقه . الا ان النائب طولان ابى أن يلبس النواب
قبعاتهم والمملكة موجودة فصاح بصوت عال :

— انزعوا القبعات

فقابلته أصوات من ناحية اخرى :

— بل ابقوها على الرؤوس

فلما سمع الملك هذه الصيحات نزع قبعته في الحال عن رأسه
فاقتدى به العموم وكشفت الرؤوس قسراً وفاز طولان بمراة من
المحافظة على احترام المملكة

ولما انتهت الحفلة انصرف الملك وتبعته الملكة فهتف أحد
النواب بالدعاء للملك ولم يكن لهتافه صدى كما أنهم لم يهتفوا للملكة
حتى اذا صار الجمهور في الساحة الخارجية صاح القوم يريدون ان
يروا الملكة فبرقت اسرتها فرحاً لانها منذ سنة ١٧٨٦ وقت حادثة
العقد ندر هتاف الناس لها وطلبهم مشاهدتها فلما تعاظم صراخهم
بطلب مشاهدتها دخلت القاعة الكبرى وأشرفت عليهم من الشرفة
الكبرى وحيثهم بابتسامتها المشهورة فقابلوها بالصمت ولم يهتف
واحد منهم بالدعاء لها بل صاحت امرأة منهم بالدعاء لدوق اورليان
صديق الشعب فاغمي عليها كدراً وتعلمها الاعوان الى محل ترتاح فيه
فلما انتهت من اغمائها قالت لمدام كبان :

— لقد قضي على سعادتي فقد ذقت اليوم مرارة الموت ولا

سبيل الى الهناء بعد اليوم

الفصل العاشى

ميراث ولي العهد

عقدت الجمعية العمومية الوطنية جلساتها اليومية مدة شهر كامل وكان القتال السياسي شديداً بين الاحزاب وكان الحزب المعارض للملكة أقوى عزيمة واكثر عدداً بل لم يكن للملكة حزب حقيقي وانما كان هناك بعض أفراد من اصدقائها الامناء لم يفلحوا في رد غارات الخصوم الاشداء واتفق الجمهور على مجاهرة العداء « للمرأة النمساوية » فلما اقترح ميرابو على الجمعية العمومية اعتبار شخص الملك مقدساً طلب طولان منه ان يكون شخص الملكة ايضاً مقدساً فأبوا المصادقة على اقتراحه وبقى الامر قاصراً على الملك . فقالت ماري انتوانيت لناظر البوليس وهو يعرض عليها الاوراق الخاصة بها :

— هم يريدون بذلك القضاء عليّ

— بل اظنهم يقولون ان الملكة لا شأن لها في السياسة

— كم كنت سعيدة لو ابتعدت عن السياسة ولكن اعدائي

اضطروني الى التعرض لها والحقيقة ان سعادة ملكات فرنسا في

ابتمادهن عن السياسة فقد سمعت بالأمس موسيقياً يقول « ان

الملكة التي تقوم بواجباتها هي التي تلزم منزلها وتهتم بالخياطة

والخياكة » فقلت في نفسي « انك يا هذا لا تدري احوالي وانني

استسلمت الى السياسة مضطرة وسوء حظي يسوقني الى التوغل فيها (١) »

وما لبث ناظر البوليس ان اطلعها على تقاريره فاطلمت على المطاعن الكثيرة الموجهة اليها وبينما هي تظهر استياءها دخلت عليها فجأة دوقة بولنيك وانبأتها ان الداء قد اشتد على ولي العهد وأن الاطباء في ريب من سلامته فهرولت الى غرفة ولدها الاكبر حيث الاطباء والكهنة فاخذت تقبله وتبكي فقالت :

— هل انت متألم يا عزيزي

— انني لا اشعر بألم الا متى رأيتك تبكين (٢)

ثم اقبل الملك وبعد قليل مات الغلام بين ذراعي والدته وبينما الكاهن يرش المياه المقدسة نهضت الملكة وخاطبته قائلة :

— اريد يا ابي ان اهب الف فرنك لكل طفل يولد في هذا

اليوم في فرسايل

وقال الملك :

— تعالي يا ماري فان جثة غلامنا اصبحت من الآن ملكا

لندفن اسلافنا في سان دانيس . لقد مات ولي العهد فليحي ولي العهد

ثم تحول جلالته الى دوقة بولنيك وقال :

— احضري ولي العهد الى مقصورة والدته

(١) كلمات الملكة بعينها . « مذكرات مدام دي كامبان مجلد ٢

صحيفة ٣٢ »

(٢) كلمات ولي العهد على سرير الموت (مذكرات ويبر) مجلد أول

صحيفة ٢٠٩

و بعد قليل دخل نجلها الثاني يحمل ازهاراً فضمته الى صدرها
بحنان عظيم وقالت :

— اسأل الله ان يحميك يا ولي عهد فرنسا

— انما انا ولدك لويس دوق نورماندي ولست ولي العهد

فقال الملك : — لقد شاء الله يا ولدي ان يفارقنا شقيقك فراقاً

لا لقاء بعده وصرت انت ولي العهد

— اذا كان الامر كما تقول يا ابي فهل اخذ اخي معه كل

شيء مما كان له

— لا . بل ترك كل شيء لك وستكون يوماً ما ملك فرنسا

فانت وارث اخيك

— وما معنى انني الوارث

— معناه انك تحصل على جميع التاج

— أهذا كل شيء اناله . انني لا اريد التاج وانما اريد ان

احصل على شيء آخر مما تركه

فقالت الملكة : — اظن انني فهمت مراده . ثم همست باذن

الوصيفة وهذه عادت بمد قليل فحمل كلباً صغيراً يدعى « موفلي »

ففرح الفتى كثيراً لما علم ان الكلب صار له فرفعت الملكة بصرها

الى السماء وقالت :

— يا لسذاجة الاطفال وطهارتهم . لماذا لا يلعبون كذلك كل

حياتهم ؟ لماذا ^{تحميهم} ندوس هذه العواطف كلما تقدمنا في السن ؟ لقد

نال مملكة عظيمة وهو مع ذلك يفرح بالكلب . حفاً ان الحب

هو اعظم ميراث لأنه دائم لا يزول

الفصل الحادي عشر

الملك لويس السادس عشر

اقبل يوم ١٤ يوليو على باريس بحوادثه الخفيفة واندلع لهيب الثورة . على انه لم يكن قد وصل الى فرساي بل كان القصر في مساء ذلك اليوم ترفرف عليه السمكينة والطمانينة بعد ان عقد جلسات عديدة في مقصورة الملك فلم يقر القرار على شيء وانسحبت الملكة الى مقصورتها ونام الملك نوماً هادئاً بضع ساعات فقط ثم ايقظه الحاجب لان دوق لانكور جاء يريد مقابلة مولاه فاسرع الى مقابلته وسأله عن سبب مجيئه في تلك الساعة من الليل فانبأه الدوق بما صارت اليه باريس وان رؤساء الجيش لم يجرأوا على ارسال تقرير الى الملك والوزارة وان الاهالي تقلدوا السلاح واقتحموا سجن الباستيل فهدموه وسفكوا الدماء وطافوا الشوارع برؤس ديكوناي وفلاسال وان فريقاً من الجيش جاهر بالميل الى الشعب

— اذن هي فتنة

— بل هي ثورة يا مولاي

ثم ان الدوق اشار على الملك ان يضع حداً لهذه الحالة وذلك بان يذهب بنفسه الى الجمعية العمومية وأقنعه ان هذه الزيارة توقف تيار الثورة ثم حضر اخوة الملك والملكة وابلغهم رأي الدوق وانه موافق فعارضوه فاصر على رأيه وأمر الدوق ان يتقدمه ويعلن قدومه وامر اخوته ان يسيروا معه

وفي غضون ذلك كان الهياج شديداً في جلسة الجمعية العمومية والكونت ميرابو يثير الخواطر على الملك واذ ذاك وصل الرسول وأبلغ الجمعية بواسطة رئيسها ان الملك قادم اليهم واستولت الدهشة على الجميع لهذا الحادث الفجائي وصاح ميرابو :

— اذاً يجب أن نستقبل الملك بالسكوت ففي ساعة المصائب العام يكون الصمت خير درس للملوك^(١)

فوافق الجميع على رأي ميرابو بالتصفيق العام ولكن قبل أن ينتهي التصفيق اقبل الملك مع أخويه فقط ولا حاشية ولا اتباع ورغماً عن جميع المساعي السابقة اثر دخوله على القوم تأثيراً عظيماً فهتفوا بالدعاء له هتافاً رددت صدهاء القاعة فوقف جلالته مكشوف الرأس وخطب الجمعية العمومية بدون اقل تكلف فقال انه وهو رأس الامة قد جاء لمقابلة نوابها معلناً اسفه لما حصل قاصداً أخذ رأيهم في اعادة الامن الى نصابه ثم تناول الاشاعات التي ذاعت عن خطر يحيط بسلامة النواب فنهاها وقال « بل أنا الذي وثقت بكم فساعدوني في هذا الوقت العصيب على اعادة الامن وتعزيز السلام وقد امرت بصرف الجنود من باريس وفرنسايل »

فقبول خطابه بالاستحسان العام و بعد ان رفع رئيس اساقفة بريان شكر الجمعية تحوّل جلالته يريد الانصراف فوقف الجميع اكراماً ومشوا ورائه الى الشارع فعاد ماشياً الى القصر في هذا الموكب النادر وكانت الملكة على الشرفة تنتظر ومعها ولي العهد فلما

(١) كلمات ميرابو بعينها « مذكرات الكونت دي ميرابو » مجلد ٢

رأها الملك رفع قبعته وحياتها فلم يفعل النواب فعله فبكت الملكة وعادت الى مقصورتها وقد تأكدت حتمد القوم عليها

ولما امسى المساء هجر القصر الكونت دارتواز ودوق انجوليم وغيرهما من الامراء فركبوا عرباتهم وفروا ليلا من فرنسا وتبعهم في الغد الوزراء بعد ان استقالوا . على ان كل ذلك لم يكف لاسترضاء الامة بل اضطرت الملكة الى صرف اخص اصداقائها دوق ودوقة بولنيك فدعتهما اليها وأمرتهما بالفرار في تلك الليلة على انهما رفضا الفرار واصرا على البقاء في خدمتها فابلغتهما خوفهما على حياتهما لان الشعب شديد النقمة عليهما وفيما هي تناقشهما دخل الملك فسألته ان يقنعهما بالفرار فقال :

— صدقت الملكة لا بد من ذهابكما فان سوء حظنا يضطرنا الى مفارقة احبائنا فاني منذ هنيئة ودعت اخي والآن اودعكما وآمركما بالذهاب . اشفقنا علينا ولكن عجلا بالذهاب مع اولادكما واعوانكما وسنجتمع في احوال افضل بعد ان يزول الخطر . ومرة ثانية آمركما بالذهاب ^(١)

الفصل الثاني عشى

٥ اكتوبر سنة ١٧٨٩

اصبح الناس وقد تلفحت شمس باريس بالغيوم كانها تتردد في

(١) كلمات الملك بعينها . وهذا الموقف المحزن صحيح تاريخياً كما ورد في افادات (مونجوا) في كتابه « تاريخ ماري انتوانيت » وفي « مذكرة مدام كامبان » وفي المجلد الاول من مذكرات ويدر

عزم
 البروغ فراراً من مشاهدة الحوادث المنكرة التي تحدث يومئذ
 في باريس . واجتمع الحرس الوطني بسلاحه اذ شاع ان النوادي
 ستمثل دورها الثاني من رواية الثورة وجاهر مارا في ٤ اكتوبر
 ان الشعب ساكن يجب ايقاظه من سباته واول مادبروه انهم اصدروا
 الاوامر « ان لا تحبز الافران خبزاً لتصبح باريس فلا تحبذ قوتاً
 ويستيقظ الشعب فتعظم نغمته على الملكة » فلما كان صباح ٥
 اكتوبر لم يجد الاهالي حاجتهم من الخبز فاستولى الذعر على النساء
 اولاً ونسج خطباء الثورة على منوال مارا زعيمهم فاذاعوا بين الشعب
 انهم انما يجوعون ولا يجدون طعاماً لان الملكة جعلت لنفسها
 ولا نصارها المؤونة وصاتها بقوة الجيش في فرسايل . فثارت
 النساء وصحن : « هيوا بنا الى فرسايل فان الملكة قد
 احتكرت الخبزة لنفسها ولقومها ولديها المفاتيح » وللحال
 اجتمعت نساء باريس وخصوصاً نساء العامة يحملن ما تيسر من
 انواع السلاح والحصي وزحفن على فرسايل فاسرع الجنرال لافايت
 يريد صيانة الملك والملكة من هياج الشعب وفي الوقت نفسه ليصون
 الجمعية العمومية من اعتداء الجيش الذي بقي مخلصاً للملك . على
 ان النساء ومن رافقهن من الجنود والرجال كانوا قد سببوا الجنرال
 لافايت الى فرسايل حيث كانت الملكة وحدها في ترانون لأن
 الملك ومعيته ذهبوا الى الصيد في مودون وفيما هي تمشي في الحديقة
 منفردة سمعت جلبة ثم صوتا ينادي « اين الملكة » وبعد قليل
 اقبل المستشار طولان وانبأها انه قادم بأشارة مدام كاهبان فسأل
 جلالتها الانتقال الى فرسايل لأنه كان في باريس وعلم بما فعلا

زعماء الثورة وان اكثر من عشرة آلاف امرأة يزحفن على فرسايل فاسرعت الملكة تريد الوصول الى اولادها حتى اذا صارت على مقربة من سور حديثة فرسايل اقبل الكونت دي سارن برسيت وانباها بتقدم النساء فشكرت طولان على حميته ثم وصلت الى فرسايل وقد ساد القلق والاضطراب فامرت وصيفاتها بالانزواء مع اولادها في مقاصيرهم وان لا يفتح الباب لاحد سواها ثم نابت عن الملك في غيابه فاصدرت الأوامر اللازمة لصيانة القصر فلما عاد الملك انبأته بما جرى وحرضته على المقاومة بما بقي لديه من الجنود فقال : — بل يجب ان نقف على شكواهم . ثم عقد مجلساً للمشورة فلم يقر القرار على شيء وكانت النساء قد وصلن الى فرسايل ومعهن جنود الحرس يحرون مدفعاً وسمعت أصوات التهديد والوعيد وهم يطلبون الدخول الى القصر ومالبث ان جاء البرنس دي لكسمبرج قائد الحرس فصاحت به الملكة غاضبة :

— هل جئت لتقول ان الشعب قد استولى على القصر

— لو كان الامر كما تقولين مارأيتموني هنا . فان الغوغاء لا تصل

الى القصر الا بعد ان تدوس جثتي

— الحمد لله ان في فرسايل رجالا امناء

وتحول البرنس الى الملك فقال :

— لقد اتيت يا مولاي للعمل باوامرك فان هؤلاء المجانين

يزدادون تهوراً والالوف منهم يحاولون اغتصاب الابواب بل انهم

أطلقوا بنادقهم فعلا على الحرس فالتمس من جلالتك ان تبيحوا لي

رد النسوة الثائرات بالقوة

— هذا رأي سخييف ايها القائد كيف تطلب مني ان اسمح بالهجوم على جماعة من النساء . لا ريب انك هازل أيها الامير (١) وتحول الى كزنت دي لامارك فسأله عما لديه فاجاب ان النساء يطلبن مقابلة جلالته وعرض شكواهن فقال :

— ساقابلهن . فقل لهن ان يخرتن ستة منهن وجئني بهن الى مكتي فسأذهب لمقابلهن . ورغمماً عن توسلات الملكة ذهب الملك فقابل الوفد النسائي فشرحن له شكواهن فقال :

— ثقوا انني غير مسؤول عن تعاسة الشعب وانني في مثل حاله من الشقاء . وساحمدر أوامري الى رؤساء مخازن الغلال ان يوزعوا ما في الامكان توزيعه ولو صدعوا بأوامري دائماً ما جرى كل هذا . ولا ريب عندكم انني احب رعييتي فاذهبوا يا اولادي وقولوا لرفاقكم ان يكونوا اهلاً لمحبة ملكهم وان يعودوا الى باريس (٢)

خرج الوفد شاكرأ ولكن الجاهير لم تقابل جواب الملك بالرضى وصاحوا بالفاظ الالهانة للملكة واقتحموا القصر بعنف فجاء الجنرال لافايت ليدافع عن الملك والملكة وتولى حراسة القصر

الفصل الثالث عشر

ليلة الرعب

نامت الملكة متخوفة ولكنها لم تدرك حقيقة مركزها وان

(١) كلمات الملك بعينها . مذكرات « ويدر » مجلد اول صحيفة ٤٣٣

(٢) كلمات الملك . مذكرات دي بوشيسن مجلد اول صحيفة ٤٣

الامة ناقة عليها وعلى الملكية واما وصيفاتها وفي مقدمتهن مدام كامبان فقد اتفقن على السهر لحراستها هي واولادها لأنهن سمعن اصوات الثائرين من نساء ورجال وجاء المسيو فاريكور فروى ان القوم يزداد عددهم وهياجهم وان الزعماء يثيرون عواطفهم بالخطب ويحرضونهم على اقتحام القصر وكسر الابواب وان عدداً كبيراً من الجنود انضموا الى الثائرين

وعند الساعة الرابعة صباحاً استأنف القوم هجومهم فنازلهم فاريكور ولكنهم تغلبوا عليه وجرحوه فاسرع الى مدام كامبان وهو جريح وقال :

— قد حان الوقت . فانهضوا ^{أسس}الملكمة انهم سيقتلونها (١)
فاسرعت مدام دي كامبان وأوصدت الباب واذ ذاك سمعت ضجة عظيمة وأصوات القوم ينادون :
— نريد الملكة . نريد أن ننزع قلبها
فدخلت كامبان الى مقصورة الملكة وايقظتها فقالت :
— هاتي ملاسي

— هذا مستحيل الآن فليس لدينا وقت . والقت عليها ثوبها
ودفعتها الى الفرار من ناحية ايل دي بوف وهناك لقيت الملك .
وفي تلك الساعة المخيفة قال :

— هاتوا الشوكولاته لاتناول فطوري
فقالت الملكة : — افى هذه الساعة يا سيدي
— نعم . لأنه متى قوي الجسد استطاع الاحتمال

فقال ولي العهد : - وانا اريد ان افطر

فقالات الملكة وقد وضعت النلام في حجر ابيه

— مولاي . هل يعلم ملك فرنسا ولده ان يتناول طعام الفطور

بينما الثورة على الابواب والعصاة يحاولون اقتحام القصر الملكي ؟ وانت

يا مدام كامبان ساعدني على اتمام زيني لأني اريد ان استقبل الثورة

وبما فرغ الملك من الطعام قالت الملكة :

— والان اظهر نفسك ملكا

— يصعب يا عزيزي ان اظهر بمظهر الملوك طالما الشعب

لا يريد ان يعتبرني ملكا . فما الذي افعله يا ترى

— مولاي . ارسل الى فنان وما جاورها وادع جنودك واجمع

حولك ما يمكن جمعه من الجيش وازحف بهم على باريس وحارب

العاصمة النائرة تدخاها ظافراً فاتحاً

اما الملك فتردد اولاً ثم امتنع وبعد قليل حضر الجنرال لافايت

وابلغ الملك ان لا سبيل الى تسكين الثائرين . وما لبث النوم ان

كسروا الابواب ودخلوا ينادون :

— فليحي الملك . نريد ان يذهب معنا الى باريس

فاشار الوزير نيكر بالذهاب الى باريس ووافقه الجنرال لافايت

ورغمًا من معارضة الملكة ونخوفها امر الملك الجنرال لافايت ان

يبلغ الشعب انه والعائلة المالكة يذهبون الى العاصمة . ثم لما رأى

ان الجنرال لم يتحرك من مكانه قال له :

— ما بالك لا تذهب وتبأغ الشعب امري

— مولاي توجد احوال لا يفيد فيها الا القول الصريح .
فالشعب الثائر لا يسكن ولا يصدق الا اذا سمع صوت الله او
صوت الملك نفسه

— اذا انت تعني ان ابلغ الشعب عزمي بنفسي

— نعم يا مولاي

— سأعمل برأيك فهاتي يدك ايتها الملكة العزيزة واتبعونا ايها
السادة لنشرف على الشعب من شرفة القصر

الكتاب الثالث

الفصل الرابع عشر

الى باريس

اسرع الملك والمملكة وولدهما والوزراء والاعوان الى شرفة القصر وفتح الحاجب الباب العريض فانفرد الملك واشرف على الشعب الثائر . فكأن يد الله امتدت وسكن تأثرهم ولما راوا الملك هتفوا بالدعاء له فتقدم ورفع كلتا يديه وخاطبهم قائلاً :

— سأثبت لشعبي العزيز ثقتي التامة واذهب اليوم مع المملكة واولادي الى باريس فنقيم فيها . فارجعوا يا اولادي الى العاصمة وسأابعكم اليها بعد ساعات قليلة

وعاد من الشرفة بين هتافهم وحلما غاب عن ابصارهم ملأوا الفضاء صياحاً :

— نريد ان نرى المملكة . المملكة . فارادت أن تشرف عليهم بين ولديها وحاول الملك منعها فابت الا ان تجيب الطلب وتلي النداء فاشرفت على القوم ووقفت بين ولديها والملك من ورائهم . ولكن الشعب صاح :

— المملكة وحدها . لا نريد الاولاد ابعدهم فانما نحن نريد المملكة وحدها

فعاد الجميع وظهرت ماري انتوانيت وحدها ووقفت امام الجماهير وقفة الملكة القوية وقفة ابنة القياصرة فامر منظرها على القوم وتهيبوا موقفها الجليل وجراتها التامة وسكتوا كأن على رؤوسهم الطير ثم هتفوا بالدعاء لها فقابلت هتافهم بابتسامة ورجعت الى القصر

وبعد الظهر بساعة واحدة ركبوا العربات الى باريس يحيط بهم الجمهور العظيم من رجال ونساء وقد حملوا معهم على اطراف الرماح رأس فارسكور ورأس ديتون وهما يشخبان دماً وكانا راية الشعب الدموية في دخولهم بالملك وعائلته الى باريس وظلوا على ما ذكرنا حتى وصلوا الى قرب حدائق التويلري والناس يتفرجون وفي مقدمتهم ضابط شاب من ضباط المدفعية فلما مر به الركب النائر قال لرفيقه :

— يا الهي . كيف امكن حصول هذا الامر . أليس لدى الملك مدافع يفني بها هؤلاء الانذال ^(١) فاجاب رفيقته باسم :

اذكر يا عزيزي قول شاعرنا كورنيل « ان الشعب يعطي الملك تاجه ويسترده متى شاء »

ما يأخذه الانسان يجب ان يحرص عليه اما انا فلو اخذت من الشعب تاجاً لا اردّه اليهم . ولكن سر بنا فانه يفيظني ان ارى هؤلاء الانذال الذين تدعوهم انت شعباً

وسار مع رفيقه الى حدائق التويلري وكان هذا الشاب يدعى

(١) كلمات بونابرت بعينها . مذكرات بوشاسن مجلد اول صحيفة ٣٥

نابوليون بوناپرت ورفيقه الممثل الذي اشتهر كثيراً بعد ذلك
ويدعى « تالما »

الفصل الخامس عشر

الملكة ونزهتها

عادت العائلة المالكة الى باريس واقامت في قصر التويلري وفي
الغد قابل الملكة وفد من قضاة شانتليه واظهروا استياءهم من
حوادث الامس وسألوها عن اسماء الذين قاموا بتلك المظاهرة
لمعاقبتهم . فاجابت الخطيب :

— لا يا سيدي انني لا اشي برعية الملك ولا اريد محاكمتهم
فقد نسيت كل ما جرى كأنه لم يكن . اذهبوا ايها السادة ان قلبي
لا يعرف الانتقام وقد غفرت لجميع الذين اساءوا اليّ (١)
ثم جاءت نساء الاعيان واعتذرن عما حصل وبعد قليل جاء
الجنرال لافايت وسأل جلالها تعيين اوقات نزهتها في حدائق
التويلري فادركت من سؤاله هذا انه يريد تعيين من يصونها من
اهانات الجمهور فاجابته بكلمات جارحة اوشكت ان تجعله من
خصومها واذا بولي العهد قد خاطب الجنرال قائلاً :

— ايها الجنرال انني اقدم لك التحية فقد اوصتني والدتي
ان احب جميع الذين يحبوننا وقبل دخولك اخبرتني والدتي انك
لست من خصومنا بل من اصدقائنا ولذلك اريد ان اصالحك

(١) كلمات الملكة بعينها « تاريخ ماري انتوانيت » بقلم جونكور

فتناول القائد يد الغلام وقد تلاشى الغضب الذي بدأ ينمو في صدره من كلمات الملكة ثم ركع امام الفتى وقبل يده وقال :
 — يا اميري الكريم لقد خاطبتني بالفاظ الملائكة واني اقسم لك ولجلالة والدتك انني لا انسى هذه الدقيقة بل اذكرها مادمت حياً والقبلة التي رسمتها على يد ملكي في المستقبل هي عربون ويمين الاخلاص لمولاي الملك وجميع عائلته . وياولي العهد لقد جذبت اليوم الى العرش جندياً يسفك دمه لأجل بيتك الكريم فقالت الملكة وقد تأثرت من كلمات لافايت :

— انهض ايها الجنرال . ان الله قد سمع يمينك هذه وانا اقبلها باسم الملكية الفرنسية والملك زوجي وولدي وباسمي ايضاً وارجو ان تلمس لي عذرا اذا كنت قد جرحتك بالقاضي فقد اثر علي مشاهد هذه الايام ومع كل ذلك اصرت على الزهرة مع ولدها وحدهما وبينهما هما يتنزهان وصلا الى حيث اجتمعت جماهير العامة يتقدمهم سيمون الاسكاف فاعترض هذا ولي العهد بغلظة فوبخته الملكة وعادت الى القصر واقسمت ان لا تعود الى الزهرة وانقضى فصل الشتاء وكان فصلا محزناً للعائلة المالكة فانها حرمت من اصدقائها وفر اكثر الامراء وخصوم الملكة من فرنسا ولبشوا من بعيد يدسون الدسائس على الملكة ويثيرون الحرب الاوربية على فرنسا ويهتمون ماري انتوانيت بكل تهمة ويحرضون الامة عليها فرأت الامة ان تضحي الملكة على مذبح البوربون فدى لهم وكانت ماري انتوانيت تقول :

— انهم سيفتكون بي ولكنهم في الوقت نفسه يقضون على الملك والمملكة ايضاً

ولما اعيتها الحيل في اثارة شجاعة الملك للاقدام على ما ينقذهم رأّت ان تتولى الامر بنفسها فكانت تعقد المفاوضات يومياً مع الوزراء وتخطب الدول الاجنبية وترسل الى شقيقها الامبراطور ليوبولد النمساوي وشقيقته كارولين ملكة نابولي مراسلات بأرقام الشفرة فلا يفهم مراسلاتها سواها طالبة مساعدتهما وسمحت الجمعية العمومية للعائلة المالكة ان تقضي فصل الصيف في مصيفها « سان كلو »

الفصل السادس عشر

الكونت ميرابو

ظهر الآن ان لا سبيل الى كبح جماح الثورة الا بواسطة زعماء الثائرين فذهب الكونت دي لامارك ذات يوم الى الملكة وقال لها :
— يجب ان نستميل الكونت ميرابو الينا . فهو الآن اقوى رجل في فرنسا ويستطيع دون سواه ان يجمع الامة حول العرش .
— انني لن اغفر له ولا اسامحه فقد كان اول الساعين وراء ابعاد الامة عنا ولن ينحط الملك الى حد ان يتنازل الى العفو عنه
— ولكن اذكري يا مولاتي ان قد يكون مستقبل ولدك في يد هذا الرجل

— وما مرادك من هذا القول ؟ وما علاقة ميرابو بولي العهد .

انا لا انكر انه قوي الان ولكن اي سلطان له على المستقبل .
وبعد هذا فما الذي تريد مني ان افعل ؟

— يجب على جلالتك ان تقيدي الاسد وان تحولي ميرابو من
العداء الى الولاء

— يستحيل عليّ ان أميل الى الرجل الذي كان السبب في
حوادث شهر اكتوبر فهو ابن خائن وزوج خائن وشريف خائن
وافضل الموت على الاستعانة به . ألا تعلم أيها الكونت انه يشرف
ملكته بعدائه واحتقاره لها ؟ أما كان هو الذي حمل الجمعية
العمومية على تقرير تقديس شخص الملك دون شخص الملكة ؟
ولما سأله احد قاضي الاعتدال في خصومته لي ال « أنني اسمح لها
ان تبقى حية » اما هو الموم على حوادث اكتوبر ؟ اما هو التماثل
« لقد قضي على الملك والمملكة وقد بلغ من بعض الشعب لها انه
يعبث بمجنتيها ^(١) » فهو يكرهنا ويغضنا

— لا يا سيدي بل هو يحترم الملكة وهو مستعد ان يقدّمها
بحياته اذا امرت بالعفو عنه وسمحت بتأجيله كمنصير العرش
والمدافع عنه .

فدهشت الملكة لهذه الاقوال وقالت :
— هل انت تعني ميرابو خطيب الشعب ومذكي نيران الهياج
في الجمعية العمومية ؟

— بل اريد ميرابو الذي كان امس عدو الملكة وسـيكون

(١) كلمات الملكة بعينها . تاريخ جوناكور من ماري انتوانيت ص ٢٠٥

اليوم نصيرها الاعظم اذا شاءت جلالته وتنازلت بأن تلغظي الأمر
باجراء ذلك

— هذا مستحيل

— انه لما رأى جلالته مراراً في هذه الايام ولاحظ عظمتك
وانفتك وصبرك على الشدائد طراً على افكاره انقلاب عظيم .
وسكن ثأره شأن الأسد وقد حدقت به عين نفس طاهرة . وقد
يفيدنا كثيراً فهو يكتب ويتكلم عن الملكة بحماس واخلاص
ويتوق الى الزرع عند قدميك ليعترف بغلظه ويحصل على عفوك
— وهل يعلم الملك شيئاً من كل هذا ؟

— ما كنت لأجراً على عرض ما عرضته على جلالته لولا ان
الملك نفسه امرني بذلك . فقد تأكد جلالته ان الواجب يقتضي
استمالة ميرابو وهو يرجو ان تكون الملكة من رأيه
— سافوض جلالته في الأمر ولكن اعلم مقدماً اني لا ارضى
بما تقول الا في حالة الياس والاضطرار

واتضح للملكة بعد درس المسألة درساً دقيقاً ان الحالة
تستوجب الرضى بمصالحة ميرابو فوافدت اليه الكرنات دي لامارك
يلغنه ان جلالته تبيح له مقابلتها ولكن كان لا بد لنجاح هذه
المقابلة من ابقائها سرّاً عميقاً لا يذيع خبره . فلا يجب ان يدري
باستمالة ميرابو احد لئلا تقل ثقة الشعب به فيقل نفوذه خصوصاً
وهو يومئذ ولي الامر يتصرف كما يشاء في ميول الامة واهوائها
وكان ميرابو قد اشترط على صديقه دي لامارك بعض شروط
لما حاول استمالة الى الملك والملكة . اولاً ان يتمكن من مقابلة

الملسكة . وثانياً ان تسدد ديونه . وثالثاً ان يبين له راتب شهري قدره مائة ليبرا فرنسوية

فلما دفعوا له راتب الشهر الاول قال لصديقه دي لامارك :

— انكم تدفعون لي اجراً ولا تشترون ذمتي مشترى . لقد انجزتم هذا الشرط وماذا يكون من الشرط الآخر ؟
— ألا تزال مصراً على مقابلة الملسكة ؟

— نعم لا بد من مقابلتها . فاذا كنت احارب جروب الملكية وانتصر لها لا بد لي اولاً من اعتبارها وتكريمها . واذا كنت اسعى الى اعادة حياتها اليها يجب اولاً ان اؤكد انها قادرة على الحياة . وان اعلم بنفسى اننى ادافع عن رجل قادر وشريف وحازم . والملك الحقيقي الآن هو مارى اتوانيت . ولا يوجد غير رجل واحد في دائرة لويس السادس عشر وهذا الرجل هو زوجته . فيجب ان احادثها لارى واسمع ما يثبت لي انها جديرة بما افعله من المخاطرة بشرفى واسمى وسمعتى من اجلها . فاذا كانت حقيقة المرأة القادرة التى اتوهمها تنفق معاً على انقاذ الملكية والعرش . وستعلم عن قريب ماذا تقدر ان تفعله ابنة ماريا تريزا وولي العهد بين ذراعيها وكيف تستطيع ان تؤثر في عواطف الشعب الفرنسوي كما فعلت والدتها فاثرت في عواطف الشعب المجري^(١)

وفعللاً تم لميرابو ما اراد وقابل زعيم الثورة الاول زعيمة الملكية المحتضرة وكان اجتماعهما في حديقة سان كلو في ٣ يوليو سنة ١٧٩٠

(١) كلمات ميرابو . راجع تاريخ مارى اتوانيت وعائلتها بقلم دي لاسكور

ولم يدر باجتماعهما الا فريق من خاصة الاصدقاء
جلست ماري انتوانيت على العرش لتقابل ميرابو . وذلك
العرش هو مجلس من مجالس الحديقة تحيط به الاشجار والازهار
وكان ميرابو قد زایل باریس الى قصر قریته المارکیزه اوجان فقضى
لیلته هناك وفي الصباح رافقه ابن اخته المسیودي سايلان فتمشیا
في حديقة سان كلو فلما وصلا الى الباب الذي بقي مفتوحاً لهذه
الغاية ودع ميرابو ابن اخته قائلاً :

— لا ادري سبباً لترددي وانني اسمع صوتاً يناديني « ارجع
يا ميرابو ولا تدخل هذا الباب لانه يؤدي بك الى القبر »

— اصغ لهذا النذير يا خالي العزيز فاني اشعر بمثله
— لعلمهم دسوا لي دسياسة . فهؤلاء البوربون لا يتأخرون عن كل
عمل لادراك مقاصدهم . ولعلمهم دعوني الى هذا المكان ليقعوا
بي . ولكن انتظري ايها الصديق هنا فاذا لم ارجع اليك بعد
ساعتين فاذهب الى الجمعية العمومية وقل لهم ان ميرابو اجاب
استغاثة الملكة وذهب الى سان كلو وهو سجين هناك
وافترقا فدخل ميرابو وسار حتى لقي الكونت دي لامارك عند
منعطف الطريق في الحديقة فقال له هذا بلاهجة من يلوم :
— لقد سبقتك الملكة وهي تنتظرك

اما ميرابو فانه هز كتفيه ومضى في طريقه يتبعه دي لامارك
حتى وصل الى غابة صغيرة فدخلها ورأى مجلساً خشبياً جلست
عليه سيدة في ثوب ابيض بسيط وعلى ذراعها قبعة من القش
لايبيض وقد سترت شعرها بوشاح اسود . وكانت هي الملكة .

فوقف ميرابو ورمقها بنظرة من بعيد ثم تحول الى صديقه دي لامارك وقال همساً :

— لست ادري ايها الصديق سبباً لما اشعر به من الشعور الغريب . فاني لم اذرف دمعة واحدة منذ طردني ابي من منزله ولكنني الان وقد رأيت هذه المرأة في مجلسها اقدر ان ابكي بدموع غزيرة واشعر بعاطفة حنان لا اقدر على وصفها

وكانت الملكة قد ابصرته ايضاً فامتتع لونها وحوالت مرتجفة الى الملك وقد اختبأ على مقربة منها في الازهار الغضة فقالت :
— لئد اقبل الرجل الخيف . يارب انني اشعر برعب يستولي علي واذا نظرت الى هذا الرجل المكروه اكاد امرض من شدة احتقاري وبغضي له (١)

— تشجعي يا عزيزتي ماري فربما توقفت على هذه المقابلة سعادتنا ومستقبل أولادنا . انظري أنه يدنو . فقابليه بلطف .
واما انا فاني أنسحب لانك ستكونين وحدك صاحبة الفضل في هذا اليوم وللملكية فيك افضل نائب لصياتها
— ولكن أرجو أن تبقى قريباً مني لتسمع ندائي اذا اضطرت الى الاستغاثة

فتبسم الملك وقال : — لا تخافي يا ماري . وتأكدي أن الخطر عليه اشد منه عليك . فاذا ذاع خبر مجيئه لزيارتنا يعلق به لقب الخائن . سأذهب الآن لانه أقبل

وحالما انسحب الملك وصل ميرابو فاحنى كثيراً فنهضت الملكة ولم

(١) كلمات الملكة بينها . مذكرات مدام دي كامبان المجلد الثاني

تكن ساعتئذ ملكة تقابل أحد رعيئها بل هي سيدة مضطربة
تدنو من خطر عظيم وتريد ان تتلافاه بابتسامة ورقة فقالت وهي
لا تزل واقفة :

— اقترب ايها الكونت

فلما اقترب جلست ورفعت ببصرها اليه فرأت وجهاً لطيفاً
وثرعاً باسماء فقالت :

— لو وجدت نفسي امام خصم عادي يريد قتل الملكية بدون
ان يدري الفائدة التي تعود على الشعب لكنت اقوم بعمل لا تقع
منه . ولكن من يخاطب ميرابو نزول منه اسباب الحذر ويتخلل
الأمل بالمعونة المدهشة من هذا العمل ^(١)

فتأثر ميرابو كثيراً وقال :

— سيدتي . ما حضرت اليوم حضور عدو بل انا خادمك
الأمين الذي لا يتأخر عن تقديم حياته بسرور اذا كان فيها
خدمة للملكة

— اذا انت تعتقد ان بين الأمة والملكية مسألة موت او حياة
— بل انا واثق من ذلك ولكنني لا ازال اؤمل ان يكون
الجواب لمصلحة الملكية بشرط استعمال الوسائل الصحيحة في
الوقت اللائق

— وما هي الوسائل اللازمة في رأيك ايها الكونت ؟

فتبسم ميرابو ونظر بدهشة الى وجه الملكة الجليل الشريف
وقال :

(١) كلمات الملكة بعينها . كتاب ماري انتوانيت وعائلتها تأليف لاسكور

— هل تنازلين وتسمحين لي قبل الجواب ان التي على جلالة الملكة سؤالاً آخر ؟

— سل ما تريد ايها السكونت

— اذا هذا سؤال : « هل تنوي جلالتك اعادة النظام القديم وهل تعتقدين ان في الامكان ارجاع التاريخ الانساني السياسي الى الوراء ؟ »

فتنهدت وقالت :

— لقد اوردت جوابك في سؤالك . انه يستحيل اعادة البناء نفسه من خراباته بل يجب الاكتفاء باقامة بيت صغير من انتقاض القصر الفخم فيقدر المرء ان يعيش فيه

— الحمد لله ياسيدي . ان جواب جلالتك هذا هو اول شعاع من النور يخترق ظلمات العاصفة . ويمكن الآن ان نرحب بالنهار السعيد والعصر الجديد . وبعد سماعي جوابك الشريف ارفع بصري فرحاً فلا تخيفني الغيوم السوداء لانها ستزول اذا استعملنا الوسائل الصحيحة

— اعيد سؤالى الأول الآن . فما هي الوسائل الصحيحة في رأيك ؟
— هي اولا الاعتراف بما هو خطأ . ثم الرغبة الصحيحة في اجراء ما يلزم وما هو ضروري
— اخبرني الآن ما هو الخطأ

فاخذ يشرح لجلالاتها حالة فرنسا وعلاقات الاحزاب السياسية والبلاط والعرش ووصف ^{apahala} باسهاب زعماء النوادي والاحزاب في الجمعية العمومية وبين الغاية المخيفة التي يرمي اليها حزب الشمال .

وتأدب فلم يذكر كلمة « جمهورية » ولكنه وصف بلطف سعي الحزب المذكور وراء إلغاء الملكية والعرش واسقاط العائلة المالكة الى ان قال :

— ولكن ستكون النتيجة حسنة ونتمكن من محاربة القوى الخفية العاملة على تقويض عرشك ونزاع من ايدى خصومك سلاحهم . وسأبذل في هذا السبيل جميع قواى وبلاغتي فاعارض الغوغاء والزعماء واعلم معارضي لهم واخدم الملكية بأمانة واخلاص واستعين بجميع الوسائل التي تؤثر في العقول — وهل انت اذا صديقنا الحقيقي قلباً وقالباً ؟ اتريد حقيقة

ان تنصبر لنا وتساعدنا بمشورتك ومعونتك ؟

— لقد دافعت عن المبادئ الملكية لما كنت لا ارى الاضعفها ولا اعرف نفس ابنة مارياتريزا وآرائها ولم يكن يخطر لي ان يكون لها وسيط رفيع الشأن نظير جلالتك . وانتصرت لحقوق العرش وانا غير موثوق بامانتى والوشايات محيطة بي اتهاماً لي بالخيانة . في ذلك الزمن خدمت الملكية وانا اعلم ان ملكي الشرعي لا يقابل خدمتي بلفظة انعطاف او اقل جزاء . فكم تكون خدمتي اعظم الآن والثقة تحركني والشكر يؤلف بين عاطفتي وواجباتي . ساكون وابقى كما كنت في كل زمان المدافع عن الملكية الخاضعة للقانون واكون رسولا للحرية المضمونة من الملكية (١)

— انني اثق بك ايها الكونت وابقوالك وانك ستخدمنا بأمانة وغيره وبمساعذك تتحسن الأحوال . واعدك ان تتبع مشورتك

ونعمل برايك . فتخار الملك بهذا الشأن وتتفق معه على ما يلزم وتفيده عما يجب لسعادته وراحة الأمة

— سيدتي اسمحي لي ان ازيد ما يأتي على ما تقدم بيانه : ان اهم امر يجب اتامه الان هو ان ينتقل البلاط الملكي من باريس — اتريد ان نهرب ؟

— لا اريد الهرب بل الانسحاب . فان الشعب الهائج يهدد الملكية فيجب ابعاد العرش المهدد عن نظر الشعب قليلا ريثما تتمكن من تسكين الخواطر واعادة القوم الى صوابهم واخلاصهم . لذلك لا اقول يجب ان تهربوا بل اقول بترك باريس لأن باريس هي الآن بركان الثورة فلا بد من انسحاب البلاط حالا الى اقصى حدود فرنسا وهناك تجمعون حولكم جيشاً يقوده قائد امين مخلص وبهذا الجيش ترحفون على العاصمة المتمردة . واكون انا هناك لأمهد الطريق وافتح الأبواب
فنهضت الملكة متأثرة وقالت :

— شكراً لك ايها الكونت . انني بعد الآن لا ارتاب في المستقبل لان رايني يتفق مع اكبر سياسي عندنا . فانا واثقة ان لا بد للبلاط من مزايلة باريس وان ينسحب فراراً من اهانات جديدة وان لا يعود الى العاصمة الا عودة ظافر مشمول بعظمة السلطان وقوته ومع جيش قوي يستطيع كبح جماح العصاة واحياء الثقة في قلوب الانصار الأمناء . فاشرح كل هذا للملك واقعه ان انتقلنا من باريس فضلاً عن انه ينقذ التاج فهو ينقذ الأمة ايضاً . ان اقوالك تقنع الملك وهو يعمل برأيك وشكراً

لك فستفيد نحن والملكية ايضاً . والآ فاذهب ايها الكونت
وابدأ عملك . وابذل نفوزك العظيم في سبيل ملكك وملكك
وتأكد ان شكرنا لك لا يفنى مدى الحياة . اذهب سالماً وثق
انني اتبع خطواتك بنظراتي وانني سأسمع كل كلمة يلفظها ميرابو
في الجمعية العمومية

فانحنى ميرابو كثيراً وقال :

- - سيدني ، لمد كان من عادات والدتك الجليلة متى سمحت
لاحد رعاياها بمقابلتها ان لا تسمح بانصرافه قبل ان تبيح له
التمتع بنعمة لثم يدها
ففات وعلى ثغرها ابتسامة :

- - صدقت . وفي هذا على الاقل اقدر ان اقتدي بوالدتي
العظيمة

وبسطت يدها اليه فادرك قيمة هذا العطف من جلالها
وفتنه لطفتها فما تمالك ان ركع امامها ولثم يدها البيضاء اللطيفة
وقال بحماس :

— سيدتي ان هذه القبلة التي رسمتها بشفتي على يد جلالتك
قد انقذت الملكية ^(١)

— هذا صحيح اذا كنت صادقاً في وعدك
وصرفته بابتسامة فعاد مسروراً الى ابن اخته الذي كان لا يزال

(١) كلمات ميرابو بعينها . « مذكرات دي ميرابو » مجلد رابع ص ٢٠٨

ينتظره على باب الحديقة فوضع يده بحماس على كتف ابن اخته
المسيو ساليان وقال بحدة :

— اي شيء فاتني حتى الآن ؟ انها عظيمة وشريفة وتعبسة
ايضاً يا فيكتور

ثم صاح بصوت عال :
— ولكنني سأنقذها . نعم سأنقذها

الفصل السابع عشر

خيمة الامل

وكان ميرابو صادق النية يريد انجاز وعده . فاصبح من بعد
تلك المقابلة نصيراً للملكية مدافعاً عنها فصيحاً في الانتصار للملكية
نفسها . ولم يفعل كل ذلك لمجرد الربح المادي بل لان الملكة فتنته
برقتها وسحرته بانكسارها

على انه امسي لا يقوى على رد تيار القوة بل لم يعد يتمكن
من انقاذ نفسه از غمرته امواجه

وادرك ميرابو مركزه الحرج فلم يكتم قلبه وتخوفه . فقبل
الاقتراع في الجمعية العمومية بيوم واحد خطب مدافعاً عن الملكية
وامتيازات الملك واراد ان يكون قوله فصل الخطاب في الحرب
والسلم — في ذلك اليوم جاهر صراحة انه نصير الملك فحدثت
مجاهرته شغباً واستياء في الجمعية . ومع ذلك خطب بشجاعة مدافعاً

عن التاج وصاح باعلى صوته قائلاً « انا اعلم ان بين قاعة الجمعية والهلاك خطوة واحدة » . وفعلاً تنقل ميرابو خطوة اثراخرى . وكان (بتيون) صادقاً في قوله ان ميرابو اشد اعداء الجمهورية خطراً وصدق (مارات) في قوله يجب على ميرابو ان يستنزف كل دم الاشراف من جسمه اويموت . وقد قال هذا الرجل الشجاع « انني ادافع عن الملكية ضد كل اعتداء من اية الجهات جاءها » وعرف انصار الجمهورية ان في وسعه جمع ما تفرق من حطام الملكية فرأوا ان يدفن تحت انقاضها

وعلى اثر مقابلته للملكة ولفظ خطابه الشهير في حقوق الملك وامتيازاته بدأت صحته تعتل . فقال خصومه ان السبب في مرضه اسرافه وشهته وبرد اصابه من شرب كؤس ماء بارد أثناء الخطابة في الجمعية العمومية وقال انصاره بل ان خصومه دسوا له السم في الكأس سعيًا وراء التخلص من خصم عنيد

وكان ميرابو على هذا الرأي الاخير وأيد ظنه هذا ما كان يشعر به من الألم في امعائه والضعف في اعضائه فامسى الأسد الذي اراد ان يربض امام العرش لصيانه رجلاً مريضاً ضعيفاً فقد صوته الجمهوري وتلاشت قوته . وحاول مقاومة الداء فلم يفلح . وحدث ذات يوم وهو يخطب انتصاراً للملكة ان اغمي عليه فنقلوه الى منزله وهو لا يعي على شيء . وبعد ان اجهد طبيبه الخاص (كابانيس) نفسه ممكناً ميرابو من فتح عينيه وعاد الى هداه ولكنه تيقن ان الموت على الابواب فقال :

« انني مشرف على الموت . واحمل في قلبي شعار جنازة الملكية .

وهؤلاء الزعماء الذين استولى عليهم الهوس يريدون نزع ذلك
الشمار ولذلك يريدون ان يكسروا قلبي وقد فعلوا ^(١) »

وبعد ان قضى ميرابو ليلة ألم شديد استدعى الى سريره طبيبه
كابانيس وصديقه الكونت دي لامارك وبسط اليهما كلتا يديه وقال :
— سأموت اليوم ومتى ادرك المرء هذه الحالة لم يبق الا ان
يفعل امرأ واحداً — وهو ان يتطيب ويرتدي اجمل ملابسه وان
يحاط بالازهار فينام في تلك الحالة نومه الابدى . فاستدعيا خدمي
واتباعي . ويجب ان ازين والبس ثيابي واظهر في اجمل حالة
ويجب ان تفتح النافذة ليدخل منها النسيم الدافئ ثم يؤتى بالازهار .
اريد ان اموت في نور الشمس وبين الازهار ^(٢)

فصدعا بشارة هذا البطل العظيم الذي اراد ان يموت ميتة
الابطال وان ينال في موته اعجاب الجمهور . فشهدت باريس
جميعها هذا المشهد الاخير اذ كان لا همَّ لاهاليها الا السؤال عنه
وعن صحته واحدقوا بمنزله فنصبت الشوارع المؤدية اليه بالجماهير اياماً
ومنع سير العربات حتى لا تزعجه واقفلت التيارات وتعطلت جميع
المتاجر بدون سابق اتفاق بين التجار ولكن اندفاعاً مع تيار العطف
على الزعيم

وفي صباح اليوم الرابع باكراً قبل ان تتحرك باريس النائمة
وقبل ان تفتح نوافذ المنازل وابوابها سرى نداء عام اُثر في كل قلب
واخترق كل منزل . فكان الناس يطوفون الشوارع وينادون سكانها :
— هاتوا الازهار . ميرابو يريد ها . اكثرها منها . هاتوا الورود

والبنفسج الى ميراو . انه يريد ان يموت على فراش منها
على هذا النداء العام استيقظت باريس صباح ٢ افريل
سنة ١٧٩١ ففتحت الابواب وهروا الفوف من الناس الى منزل
ميراو يحملون ما لديهم من الازهار في باقات و سلال و كاليل كأن
باريس في صيفها الجميل . فامتلاء منزله بالازهار في القاعة و الصالة
و غرف النوم و الاستقبال و استلقى ميراو في القاعة الكبرى على
ديوان كبير و قد زين نفسه و لبس ملابسه الرسمية كأنه في عيد
ملكي و وضعت حوله اجمل الازهار و تدلت عليه من كل صوب .
فودع الاصدقاء باقتسامه و مات

وكان الملك يستفهم بواسطة الرسل اربع مرات يومياً عن صحته .
فلما نراه اليه الكونت دي لامارك امتنع لونه و قال :

— ان النكبة مخيمة علينا . فالموت ايضاً يتحول الى جانب
خصوصتنا

و تأثرت ماري انتوانيت كثيراً وقالت :

لقد اراد ان يندنا و لذلك وجب ان يموت . لقد كان
الحمل ثقيلاً ^{في} ~~فرز~~ تحتته . و سيخرب الهيكل و ندفن تحت انقاضه
اذا لم نعمل في انقاذ انفسنا . لقد كان من رأيه ان ننتقل من باريس
فيجب ان نعمل برأيه فمضى ان يؤثر موته في الملك و يرضى بالسفر

الفصل الثامن عشر

الثورة في التياترو

عملاً بمشورة ميرابوقبل موته فرّ الملك والمملكة وولدهما ولي العهد من باريس سرّاً يقصدون (فارين) بعد ان تنكروا جيداً وهناك عرفهما بعض الاهالي فاذاعوا الخبر واسرعت فصيلة من الجنود بقيادة الجنرال لافايت فحالت دون مواصلة فرارهم وأعيدوا تحت الحفظ الى باريس في ٢٠ يونيو سنة ١٧٩١ واجبروا على الإقامة في قصر التويلري الذي تحول الى سجن للعائلة المالكة . وصدرت اوامر الجمعية العمومية بالتشديد المتناهي في حراستهم وصدر القرار الآتي « من هتف للملك يجلد . من اهانه يقتل » والقرار الآتي « قد فصل الملك مؤقتاً عن منصبه الملكي . ويعهد بحراسة الجميع الى حرس خاص برئاسة قائد عموم الجيش الوطني ويكون مسؤولاً عن سلامتهم وعدم فرارهم »

و بلغ من تشديدهم على المملكة نفسها انهم وضعوا الرقباء عليها ليل نهار فلم يسمح لها ان تبقى وحدها دقيقة واحدة بل انهم ابقوا باب غرفة نومها مفتوحاً ليراها الحرس وهي نائمة فيأمن فرارها . واخيراً توسلت اليهم المملكة ان يسمحوا لها باقتال باب غرفة ساعة قيامها من النوم لتلبس ثيابها فتنازلوا وابعوها لها ذلك^(١)

(١) تاريخ ماري اتوانيت . تأليف ادمون وجول دي جوتكور .

ثم ارادت ان تجرب اقصى جهدها في استمالة الشعب فلما بلغها انهم يمثلون رواية « السيست » في الاوبرا ارادت ان تذهب الى التمثيل فقد سبق في أيام السكينة والنفوذ انها حضرت تمثيل تلك الرواية فاقبعت لها مظاهرة اكرامية مشهورة انشدوا فيها نشيد الدعاء لها . فذهبت الى الاوبرا ولكن خصمها الالد (مارات) كان قد أعد دسيسته لها فنشر انصاره بين الحاضرين ولما ظهرت جلالتها وهتف بعضهم لها عارضهم فريق آخر ولما أراد المنشد ان ينشد نشيد الملكة عارضه الخصوم وحصل شقاق وجلبة فاضطرت الملكة الى الانصراف وقد علمت ان لا سبيل الى مناومة الاحزاب الجمهورية

عادت الى القصر الذي صار سجنًا وكان الملك اذا جاء ليزورها رافقه الرقباء ولبثوا معهما يسمعون كل كلمة . فدخلت مقصورة نومها وعلى الباب ضابط لحراسها فلم يتحرك من مجلسه فانفردت وراء الستار لتزع ملابسها ثم ظهرت وقالت بصوت عال :

— انني أشعر بتعب واريد ان انام

فنهض الضابط وقال للحارسين الواقفين في الغرفة الداخلية : — ان الملكة ستنام فلا لزوم للحراسة هنا . فما دامت الملكة نائمة يكفي لحراستها رجل واحد واؤكد لكم انني ساحرسها واراقبها بالشدة اللازمة

فانصرف الجنود وعاد الضابط ولكن ليس الى كرسيه بل دخل مقصورة نوم الملكة فاجفلت وتحولت الى الحرس تريد الاستغاثة فهمس قائلاً :

— بالله لا تفعلني . انظري الى وجهي . انا طولان يا مولائي
خادمك الامين وهذا كتاب من مدام دي كامبان
فقرأت الكتاب وعلمت انه صديقها وانه احتال للوصول
اليها ثم افهمها انها تقدر ان تجتمع بالملك ليلاً مدة حراسته وان
تقابل اولادها وانه سيتولى الحراسة مرة في الاسبوع

الكتاب الرابع

الفصل التاسع عشر

٢٠ يونيو و ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢

اشتد الخلاف بين الملك والجمعية العمومية وعارض الملك قراراتها بشجاعة . فمن ذلك قرارها ان تنفى من فرنسا جميع الكهنة وان تنشئ معسكراً على حدود الرين ونحشد فيه ٢٠ ألفاً من الجنود وان يماقب بالاعدام من يقيم خارج فرنسا او يشترك في عمل عدائي ضدها

وفي ٢٠ يونيو سنة ١٧٩٢ رفض الملك الموافقة على ما تقدم فهاج الشعب بتجريض الزعماء واقتحموا القصر فحلبوا من كل جانب ودخلوا على العائلة المالكة يصيحون وقد اشد العامة كلاً أخرجوه من جيبه فحلبوا واوما الى الملك ان يشرب نخب الامة ففعل ثم رفع آخر الى الملكة بعض العمى وقد كتب عليها « الى ماري انتوانيت » وأراها آخر صورة الفيلوتين وآخر صورة مشنقة وقد كتب عليها « ارتعب خوفاً ايها الظالم فقد دنى أجلك » ورفع أحدهم الى وجهها قلب رجل يشخب دماً على طرف رمح وصاح « كذلك يكون حال قلوب الظالمين » ورمت امرأة فاجرة طرطوراً

احمر الى الملكة وامرتها أن تضعه على رأسها أو تقتلها فتحولت الملكة الى الجنرال دي ويتجنهوفن وسأته أن يضع الطرطور على رأسها ففعل مكرهاً ناقماً فهتف القوم فرحاً ثم طلبوا أن يوضع الطرطور على رأس ولي العهد وأخيراً أقبل محافظ باريس بالنجدة ففرق الشعب وأنقذ العائلة المالكة من اهانات أخرى

وعلى اثر ذلك اجتمع مائة من اعيان فرنسا وامرائها بسلحتهم وتألّبوا حول الاسرة الملكية لحمايتها وقد اشتهروا في التاريخ باسم « رجال الخنجر » الا ان الشعب الثائر تغلب عليهم فاقتل النائب العام (روديرار) وقال للملك :

— يجب ان تنجو بالاسرة فلا سبيل الى المأومة فان رجال المدفعية ابوا اطلاق النار على الشعب ولا امان لجلالتك الا في الجمعية العمومية ورجالها وحدهم يستطيعون انقاذ الاسرة الملكية . وعند الساعة السادسة صباحاً خرج الملك والملكة واولادهما من قصر التويلري ومروا في سبيل ضيق بين الشعب الهائج واهينوا وشتموا كثيراً وكان القرم يصيحون « الى القتل ابها الظالم » وهجمت بعض النساء وايدين ملطخة بالدماء يردن اختطاف ولي العهد فسبقهن احد الجنود وحمله فصاحت الملكة مذعورة فأنقذ الجندي وقال لها :

— ألا تعرفينني ؟ لا تخافي

واذا به صديقها الامين طولان وقد تنكر بملابس جندي وطني ولبشوا في سيرهم حتى بلغوا المكان الذي تلتئم فيه الجمعية العمومية فدخلوا ولم يقف احد لا كرامهم فجلس الملك بجانب الرئيس والملكة

ووصيفاتها في كراسي الوزراء واذ ذاك صاح الخطيب بصوت غاضب :

— يجب ان يجلس ولي العهد مع الملك فانه خاص بالامة وأما المرأة النمسوية فلا حق لها بثقة الشعب . وطالت المناقشات الى الساعة الخامسة مساء فتحول الملك الى خادم وراءه وقال :

— انا جائع فجنني بطعام

وفيا الملك يأكل كانت الملكة تبكي وقد ابتلّ منديلها فطلبت غيره ممن حولها من معينها واذا بجميع مناديلهم ملطخة بدماء الذين قتلوا او جرحوا دفاعاً عنها وعند الساعة الثانية بعد نصف الليل انتهت الجلسة ونقلوا الاسرة الملكية الى الغرف الكائنة فوق مركز الجمعية العمومية وفي الصباح أعيدوا الى الجمعية وعقدت جلسة اخرى للنظر في اوفق محل لاقامة الاسرة وكانت زوجة سفير انجلترا قد ارسلت الى الملكة ملابس ولدها لفائدة ولي العبد وأعطتها مدام تورزيل ساعتها لانهم سرقوا ساعة الملكة ونفردوا أثناء السير في الطريق فلما سمع الرجال الذين حولها خبر هذه السرقة أفرغوا بين يدي جلالها ما في جيوبهم من المال فتالت لهم :

— أشكر لكم عواطفكم ايها السادة ولكنني ارجو أن تستعيدوا هذا المال فانكم اكثر احتياجاً اليه منا نحن لانني أرجو أن تكون حياتكم أطول من حياتنا^(١)

وبينا هي منتقلة ذات يوم من الجمعية الى مقامها الجديد رأت أثناء مرورها في الحديقة قوماً ينظرون اليها بدون تحقير أو توجيه

(١) كلمات الملكة بعينها « تاريخ لويهنس » مجلد اول صفحة ٢٠٦

عبارات الالهانة اليها فشكرت لهم بابتسامة وحنّت رأسها فقال لها أحدهم :

— لا تتعبي بهز رأسك بعناية ولباقة فانك تفقدينه بعد قليل وبعد مناقشات طالت خمسة أيام قررت الجمعية العمومية وضع الاسرة الملكية في (التامبل) . ونقلوهم اليه في ١٨ اغسطس . ففي العربة الاولى ركب الملك والمملكة واولادها ومدام اليصابات والبرنسس لامبال ومدام تورزيل وابنتها وبتيون محافظ باريس والنائب العمومي وضابط وفي العربة الثانية اتباع الملك مع ضابطين وتولى الجند حراستهم فصاروا بين الالهانات والتحقيق ونحو الساعة السابعة وصلوا الى سجنهم الجديد فنظرت ماري انتوانيت الى حذائها الاسود وقد تمزق وظهرت جراباتها البيضاء فقالت للبرنسس لامبال :

— انتظري . من يصدق ان ملكة فرنسا لا تملك حذاء

الفصل العشرون

٢١ يناير

لبثت الاسرة الملكية في سجنها الجديد اياماً ثم جاءها مانويل خصم المملكة والنائب العمومي منذ ١٠ اغسطس فابلغهم امر الجمعية الوطنية بابعاد جميع الذين رافقوهم عنهم . وهكذا أبعادوا عنهم الاصدقاء الامناء والخدم وابقوا خادم الملك دون سواه فكانت المملكة بعد ذلك مثل كل امرأة فقيرة لا خدم لديها ولا وصيفات .

وفي صباح ٣ سبتمبر ابلغوا الملك والمملكة امرأ جديداً خلاصته أن
باريس نائرة وانه لا يجوز لها التنزه في الحديقة كالعادة لان ملوك
اوربا أثاروا الحرب على فرنسا وقد زحف ملك بروسيا بجيشه حتى
شالون وزحف امبراطور جرمانيا على الالزاس
ولما جلسا الى المائدة دخل عليهما فجأة بعض الموظفين وقال
أحدهما وهو يهدد الملك بيده :

— ان الاعداء وصلوا الى فردون وقبل ان يفتكوا بنا
تموتون انتم

ثم سمعنا صوت هياج الشعب خارجاً واذا بالقوم قد رفعوا رحاً
الى النافذة وعليه رأس البرنسس لامبال فذعرت المملكة واشتد
خوفها لمتتل صديقتها الصديقة وكانوا قد طلبوا من البرنسس أن
نجاهر ببعضها للاسرة الملكية ولما أبت قتلوها وطافوا برأسها في
الشوارع

وكانت الحكومة الوطنية قد عهدت الى سيمون الاسكاف
بحراسة الملك والمملكة والتضييق عليهما فكان يجرحهما بالتحقير
والاهانات اليومية

وفي اواسط اكتوبر فرّقوا بين الملك والمملكة فنقلوا الملك الى
مكان آخر ولكنهم سمحوا للاسرة بالاجتماع في اوقات الطعام
وفي ديسمبر اتهم الملك انه خان الامة لانهم عثروا على اوراق
تظهر أنه خاطب الملوك الاجانب واستغاث بهم فاستدعوه الى
المحاكمة وأعلنوا انهم يبيحون له انتقاء الذين يدافعون عنه فجاءه
تبرعات المحامين من كل مكان وأخصهم الشاعر الالماني فريديريك

شميلر الذي نشر دفاعه عن الملك ^(١) وأخيراً اختار لويس للدفاع عنه أولاً وزيره السابق والفيلسوف العالم دي ماليرب والمحامي تورشي والمحامي الشاب الشهير ديسيج

وفي ٢٦ يناير سنة ١٧٩٣ حكم على الملك بالاعدام ولما سيق الى القتل حاول بعض انصاره انقاذه فلم يفلحوا وأخيراً قطعوا رأسه . وفي مساء أعدامه ذهب الجلاّد سمسون الى الكاهن ودفع ثمن قداسات عن روح الملك واعتزل عمله ومات بعد نصف سنة وبقيت القداسات التي فرضها الجلاّد تقام عن روح لويس الى سنة ١٨٤٠ ^(٢)

وفي الغد التمسّت أرملة الملك من اولياء الامور ان يرسلوا اليها ثياب الحداد ففعلوا

الفصل الحادي والعشرون

طولان

عاد طولان الى (التامبل) لحراسة الملكة وقد تظاهر بالحقد عليها حتى وثق به سيمون وزوجته وهما قد توليا رئاسة الحرس بشدة وتضييق لحاول انقاذ ولي العهد وتوصل الى اعطاء الملكة ثياب فتي يتنكر بها ولي العهد تمهيداً لفراره مع والدته ومدام

(١) لا يزال دفاع الشاعر الالماني محفوظاً في اوراق فرنسا الرسمية . تاريخ

بوشيسن مجلد اول صحيفة ٢٦٥

(٢) تاريخ لاسكور عن ماري انتوانيت واسرتها صحيفة ٦٤٨

المصائب اذ أعد لها ملابس الرجال ورسم خطة الفرار على انهم
مقى خرجوا من (التامبل) يذهبون الى منزل رفيقه في الرأي
(لابتير) في شارع كوندري فيحصلون الى نورمانديا ومنها يركبون
البحر الى انجلترا على ان زوجة تيزون وشت بالمدينتين حين لا يتير
وعدل عن انقاذ الملكة . أما طولان صديقها الأمين فانه ترك رفيقه
ومشي ثابت الحاش الى الجلسة التي عقدتها في ذلك اليوم لجنة
المحافظة على المدينة ويدها الامر والنهي فدخل وخاطبهم بصوت
عال معلناً براءته من تهمة الخيانة وانه لما بلغه سوء ظن القوم به
نصح له بعضهم بالفرار فاني لانه مخلص الامة . على أن خصوم
الملكة أبوا ان يصدقوه فامروا بارساله الى السجن فاحتال على
الحرس حتى اوصلوه الى منزل خطيبته وهناك فر من بين ايديهم
وتنكر ولبث مختبئاً ذلك اليوم

وفي يوليو سنة ١٢٩٣ قررت لجنة الامن العام فصل ولي العهد
عن والدته وتسليمه الى استاذ يريه فانزعوه من الملكة في مشهد
محزن ودفعوه الى سيمون الاسكاف وزوجته

وكان الحاجب من حين الى آخر يرق لمصابها ويأتيها بأخبار
ولدها وانه تعلم حب الكرة . ثم علمت من عويله وبكائه وتهديدات
سيمون له انهما يسيئان معاملته . بل كانت تسمعه ينشد مرغماً
الاناشيد التي وضعت يومئذ طعناً عليها وتشويهاً لكرامتها
ولما نقلوها في ٢ اوغسطس الى السجن قالت :

— الحمد لله ما عدت اسمع ولدي ينشد تلك الاناشيد

الكتاب الخامس

الفصل الثاني والعشرون

اعدام ماري انتوانيت

في ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٣ قتلوا ماري انتوانيت بعد ان مضى على انتقالها الى السجن اربعة شهور ولبثت محاكمها من ٦ الى ١٣ أكتوبر وكان الشعب لا يمل اهانها اذاء المحاكمة فيطلب الناس من حين الى آخر ان تقف في مجاسها ليروها وسمعوها تقول مرة وقد امروها بالوقوف : « ألا يسرع الوقت الذي يكف هؤلاء الناس فيه عن تعذيبي ^(١) »

ولم يجسر احد أن يعتلف عليها الا الجنود الذين يحرسونها . وحدث بينما كانوا يسرون بها مساء ذات يوم من المحكمة الى السجن انها قالت : « لا اقدر ان ارى ولا اقوى على السير » ^(٢) فاسرع جندي واخذ يدها فتوكأت عليه وصعدت الى سجنها منهوكة القوى واخيراً عند الساعة الرابعة صباحاً حكوا باعدامها وفي مساء ١٥ أكتوبر قضت ساعاتها الاخيرة في الكتابة الى مدام اليصابات

(١) كلمات الملكة بعينها . تاريخ ماري انتوانيت صحيفة ٤٠٤

(٢) تاريخ جوناكور صحيفة ٤١٥

أخت الملك وضمنت ذلك التحرير وصيتها ولم تكن تملك غير شعرها
فاوصت به لأولادها بعد أن قطعت يديها وطلبت طعاماً ثم استعدت
للموت وطلبت من زوجة السجن قيصاً فلبسته ولبست ثيابها
التي كانت تلبسها أثناء المحاكمة وزادت عليها قطعة بيضاء حول
عنقها ثم نامت الى ان أيقظها السجنان وأنبأها بحضور الكاهن
(جروا) فلما سألها اذا كانت تريد قبول العزاء الديني رفضت
وأخذت تمشي في سجنها حتى اذا كانت الساعة السابعة ففتح الباب
ودخل سمسون الجلاد فتألمت له :

— لمد عجبت يا سيدي في الحجيء . أما كان يمكنك التأخر
قليلاً ؟

فلما أبى الرجل عاد اليها ثباتها وتناولت قليلاً من الشوكولاته
ولبثت رابطة الجاش لما قيدوا يديها بالحبال
وعند الساعة الحادية عشرة خرجت من سجنها وركبت العربّة
وحيدة لا يرافقها أحد ولا يرق لها انسان . ومشيت بين صنيين
من الجندي يتبعها الجلاد وفي يده طرف الحبل الذي ربط به يديها
ومن ورائه مساعده والكاهن . كذلك كان موكب ماري انتوانيت
ملكة فرنسا وابنة ملوك الممسا

واجتمع الناس بكثرة في الطريق لأنهم علموا ساعة قتلها
وتجمعوا حولها يصخبون ويشتمون وعند الظهر وصلت بها
العربة الى ساحة الاعدام فترجلت ومشيت الى الموت بشجاعة
ووضعت رأسها على النطع وما لبث الجلاد أن رفع ذلك الرأس
وهو يشخب دماً وصاح : « فلتحي الجمهورية »

في عشية ذلك اليوم وضع أحد موظفي الجمهورية صورة حساب لا تزال محفوظة في المكتبة الملكية في باريس الى الآن وهذه صورتها :

« تقنيات صرفت الى (جولي) شماس كنيسة (لافيل اليانيك)
عن دفن اشخاص حكمت باعدامهم لجنة الامن العام وهم :

نمرة ١

نمرة ٢

.

نمرة ٢٥ أرملة لويس كابيت (أي ماري انتوانيت)

ثمن نعش ٦ فرنكات

اجرة حفر القبر ٢٥ فرنكا

وفي ذيل الحساب المذكور ما يأتي :

« انا رئيس محكمة الثورة اطلعت على ما تقدم وصادقت على

صرف مبلغ ٢٦٤ فرنكا لجولي شماس المادلين من خزانة الحكومة

الوطنية . باريس في ١١ برومار في السنة الثانية للجمهورية

الفرنسية
« الرئيس هرمان »

يعتبر أن دفن ملكة فرنسا كلف حكومتها ٣١ فرنكا أو

١٢٠ قرشاً

الفصل الثالث والعشرون

الملك لويس السابع عشر

فتكت الجمهورية بالملك والمملكة وقضت على الملكية الا ان أنصارها وزعماءها لم يدركوا الطمأنينة التي يريدونها لأن بقاء ولي العهد حياً أبقى املا في أنصار الملكية . نعم ان الغلام كان في الثامنة من عمره وهو سجين في (التامبل) الا أن أنصاره ظلوا يعترفون به ملكا على فرنسا والكهنة في (الثاندي) كانوا يحتمون صلواتهم بالدعاء للملك الغلام السجين فيقولون « مات الملك فليحي الملك » ولا ينكر أن بعض انصار الملكية تقموا على الغلام واتهموه انه اساء الى والدته بتشويه سمعتها وفاتهم أن غلاماً في الثامنة من عمره انما صدع باوامر سجانه سيمون الطالم القاسي فكان يجيب على الاسئلة الموجهة اليه في المحكمة مراعيأ اشارات سجانه وتهديداته فما قال عن امه الا ما أراده سيمون خوفاً من العقاب الأليم لأن السجان كان يرهب الغلام بالتهديد والضرب والوعيد ولذلك شهد الغلام على والدته بما يشوه سمعتها وهو لا يدري ما يقول وكانت حكومة الجمهورية قد عهدت بالغلام والعناية به الى سيمون الاسكاف وزوجته وصدر الامر أن لا يباح لسيمون الخروج من التامبل وأن يبقى ملازماً للغلام وقبل قتل المملكة بيوم واحد جرى الحديث الآتي بين سيمون وزوجته فيما يتعلق باعدام المملكة

قالت زوجة سيمون :

— أخشى ان تغفلت من يد الجلاذ فانها لا تزال جميلة وربما استطاعت أن تؤثر في القضاة فانما هم رجال — ولكن العدالة لا يؤثر فيها جمال الملكة

وانتهى الجراال بينهما انهما تراهنا على ما يأتي :

اذا أعدموا الملكة ظهيرة اليوم التالي تقيم زوجة سيمون وليمة في المساء . فلما أصبح الصباح ذهبت الزوجة الى ساحة الاعدام لتراقب بنفسها ما يجري ولبت سيمون مقبلا على حراسة الغلام وما لبث أن رفس الباب برجله ونادى ولي العهد قائلا :

— تعال يا هذا لنصعد الى الشرفة وخذ كرتك معك والعب وافرح واضحك فهذا يوم عيد للجمهورية وساجعلك جمهورياً فاذا شئت ان لا يوجعك سوطي كن فرحاً اليوم

— ارحمني يا سيدي فقط وأنا أفعل ما تريد

وصعد الى الشرفة وأطل سيمون فسمع أصوات الطبول والهتاف ورأى الجماهير فعلم أنهم يهرعون الى ساحة الاعدام وأنه سيربح الرهن وساء اضطراره الى البقاء حيث هو ف ضرب الفتي صريرة أليمة وصاح به :

— أنت سبب غيابي اليوم يا شقي

فاغرو رقت عينا الفتى بالدموع وقال :

— عفوك يا سيدي اذا كنت قد أسأت اليك في شيء

— نعم لقد أزعجتني وسأعاقبك فامسح دموعك حالا واضحك وافرح أو أذيقك عذاب الجلد

نخاف الولد وأخذ يضحك ضحكا عالياً

وبعد قليل عادت زوجته (جان ماري) وأنبأه بمقتل الملكة .
وفي المساء أدبت لزوجها مأدبة تدفق فيها الخمر فاعطيا الغلام
قطعة من الحلوى واضطره سيمون تحت طائلة العتاب أن يشرب
شيئاً من الكونياك

ومن ذلك الحين بقي الغلام تحت سلطة سيمون وزوجته
الشريرة الظالمة وعيناً حاولت عمته وشقيته مشاهدة أو محادثته
فاقتصرت مشاهدتهما على دقائق ريانة فيها من خلال شق الباب
وهو ذاهب الى الشرفة مع سجانته وكانتا أحياناً تسممان صراخه
وعويله فعلمتا أن سيمون يضربه ويظلمه . وانما كانت ذنوب
الصبي أنه يأبى تناول الكونياك أو أنه لا يضحك أو أنه طلب
الذهاب الى والدته أو أبى أن ينشد الأغاني المهيينة لوالدته . فتمد
خضع لسجانته في كل شيء الا في انشاد الأغاني المهيينة لوالدته رغماً
عن الضرب والتهديد . ثم انه انتقطع عن السؤال عن أمه وعمته
وأخته خوفاً من العقاب الأبم ولكنه اذا سمع حركة وقع أفدام
في الغرفة العالية التي سجنّت فيها عمته وأخته ركع ورفع بصره الى
السقف وبكى . وكان اذا جن الليل ركع ويعيد الصلاة التي تعلمها
من والدته فانتبه سيمون مرة الى صوت الغلام فليقظ زوجته قائلاً :
— اسمعي ما يقوله « هذا العفريت الصغير » وانظري كيف

أعالجه ليشفى من هذه العادات

ثم نهض كالوحش من سريره وتناول أبريقاً من الماء البارد
وسكب ما فيه على رأس الصبي وهو يصلي فانتبه لويس شارل

مذعوراً وما لبث أن استلقى على فراشه خائفاً الا أن العراش كان قد تبلل الا المخدة فتناولها الصبي وسار بها الى زاوية الغرفة وجلس عليها ولكن أسنانه كانت تصطك برداً فابقط صوتها سيمون مرة أخرى فنهض ولبس ثيابه وهو يشتم ويلعن فقامت زوجته :
— حسناً نفعل أن تعطي الصبي درساً قاسياً

فهم سيمون على الغلام حيث كان جالساً على المخدة وهو يرتجف برداً بتميمه المبللة فتناولته من كتفيه وأخذ يشده ويرمي به من ناحية الى أخرى قائلاً :

— ساعلمك كيف تقوم ليلاً وتصلي فتزعجني ولما رأى سيمون سكرت الغلام تعاظم غيظه فتناول حذاءه وفي نعله مسامير غليظة وأوشك أن يضرب الصبي به لولا ان الغلام أمسك بذراع ظالمه وقال :

— ما الذي فعلته يا سيدي حتى أراك تريد أن تقتلني ؟
— وهل أنا أريد أن أقتلك ؟ أم مجهل يا شقي انني لو أردت ذلك ما عشت يوماً واحداً

ثم تناولوه ورماه على فراشه المبلل بالماء فانطرح لويس شارل لا يشكو ولبث في مكانه البارد طول الليل وهو يرتجف وأسنانه تصطك برداً (١)

ومن ذلك الحين طرأ على الغلام انقلاب عظيم . فقد كان حتى الان اذا عذبه السجن وامرأته نظر اليهما نظرات الاستعطاف

(١) من تاريخ « لويس السابع عشر » تأليف (بوشاسن) المجلد الثاني .

فأصبح الآن يغض من بصره وكان يسرع الى العمل بأوامر سجانه فامسى لا يهمه ذلك اذ تأكد ان العبودية من نصيبه على كل حال وامتتع لونه الجميل وهزل جسمه وتشوه وجهه وطالت عضلاته عن سنه وانحنى ظهره ثم لما علم انها ينبغي ان كل اقواله على هواهم لزم الصمت فلم يتكلم الا بعد العذاب الاليم . وكان سيمون يأمره أن يضحك ويلعب ثم ان يسكت ولا يتحرك مدة ساعات أو يأمره ان لا يلمس قفص العصافير وقد كان القفص كل ما أبقوه لتساية النلام . وفيه بعض العصافير مع عصفور صناعي متحرك يتنقل ويرفرف بجناحيه ويغني نشيداً كان مشهوراً قبل عهد الثورة عنوانه « ياريتشارد مولاي الملك » . وجدوا هذا القفص بين الآثار الملكية فشفق أحد الحراس على الصبي وسأل سيمون ان يأخذ القفص فرضي لانه وجد فيه تسليية له ولزوجه وقد امتنع عليهما الخروج من (التاميل) . وحدث ذات يوم أن (ميلر) المراقب اليومي زار السجن وعلم من الصبي انه ضجر من الطير الصناعي فارسل اليه قفصاً فيه ٣٠ طيراً من الكنار فنرح الالام وكان يلهو بها ويطعمها ويعلمها وتعلق بكنار خاص فعلق في عنقه شريطة وردية اللون اخذها من الطير الصناعي ولكن اتفق في ١٩ ديسمبر سنة ١٢٩٣ قدوم المنتشين الى السجن وحال دخولهم الى غرفة الصبي سمعوا الطير الصناعي ينشد نشيد الملك فنضبوا لما عدوه خيانة وتناول احدهم الكنار الأليف وقتله خنقاً ورفعوا تقريراً بما رأوا فصدر الأمر باخراج العصافير والقفص وأرسلوا يوبخون

سيمون فسأه ذلك فضلا عن فقد الطيور ونسب كل تغيظه الى الغلام فلما أصبح قال لزوجه :

— ان هذا الشقي قد أغفلني فلم أنم . وأشعر بألم في رأسي فيجب أن أغسل رجلي لأخفف ضغط الدماء على أذني وما لبثت زوجته أن جاءته باناء . اغسل رجليه وفيه الماء الساخن وفيما هو يغسل رأى ولي العهد وقد جلس على الكرسي لا يتحرك ولا يتكلم فصاح به :

— خذ القوطة يا هذا ودفعها على الموقد لأمسح بها قدمي . فصعد الغلام بأمر ظالمه ووضع القوطة بجاه النار ولكن شدة الالهب أنرت في أسابعه الصغيره فستطعت من يده واحترقت قبل ان يتمكن الصبي الخائف من اخراجها فصاح به سيمون صيحة الغضب واخذ يلمنه ويأمن والديه فتناول الصبي قوطة اخرى ودفعها بعناية ثم اقترب من سيده بحذر وخوف واراد ان يمسح قدميه فدهما سيمون الى الغلام حتى اذا انتهى ولي العهد من الخدمة رفسه الشتمي بشدة فوق وقع ولطم رأسه الأرض بعنف واغمي عليه فضر به وكان يرفعه ويضرب به الأرض ثم رفع يده وأراد ان يضر به بجمع يده الا أن زوجته كانت قد دنت منه فامسكت يده فصاح بها :

— ما بالك ولماذا تمسكين يدي

— لأنني لا أريد أن تقتله

فضحك سيمون وقال : — أخشى أن يكون الحنان قد استولى

على قلبك

— لا وليك اذا قتلتك قتلته قتلوك حتى لا يتهمهم الناس انهم
حرضوك على قتله

— صدقت وسأقتصر على ضربه فتمط بحيث لا يموت
ثم صاح بالغلام : - امض أبها الشعبان واغرب عن نظري
ولا تهيج غضبي

فمضى الغلام وذهب فغسل يديه المرتجفتين والدماء المتدفقة
من فمه وألقه . واذا بصوت ضحك أتبه بالبكاء قد استرعى سمع
سيمون واذا بزوجه قد استلقت على الارض وقد امتنع لوها
بعد ما سقطت عن كرسيها وأغمي عليها فنفلها الى سررها وأخذ
يعالجهما وقد خاف أن تمرت فيبقى وحده مع الصبي الى أن أفاقت
فقالتا انهما مريضتان متألمتان فقال انه يذهب لياأنيها بطبيب فابت
أن يتركها وحدها مع الغلام لانها تخاف
فقل : - وممن تخافين ؟

قالت همساً : - انني أخاف هذا الصبي واذا بقيت معه وحدي
فهو يتهلني فاصرفه الى غرفته لأنني لا أطيق النظر اليه أو ابقد عتلي
فصاح به سيمون فانصرف الغلام مهرولا الى غرفته الصغيرة
المظلمة وأسرع يريد استدعاء طبيب ثم عاد يقول ان البواب ذهب
من تلقاء نفسه لاستدعاء الطبيب من مستشفى الحكومة . فقالت
زوجه :

— لا فائدة من حضور الطبيب . اعطني كأس ماء لأن في
يكاد يحترق وادع الغلام الى هنا فهو في غرفته المظلمة بزعبني
بعينه البراقطين . فسقاها ماء وقال في نفسه انها مريضة وقد

ادركها الحمى ولنكن لا بد من العمل بإشارتها لئلا تصل الى درجة
الهلذان وتنتهي الى الجنون ثم صاح بالغلام بصوت عال :

— ادخل يا ابن الذئبة . ادخل يا شقي

فاسرع الصبي خائفاً مرتجفاً وجلس على كرسي من خشب .
فصاحت جان ماري مذعورة :

— لا اريد أن ينظر اليّ بعينه الخفيفتين لأن نظره يؤذيني

كثيراً

فصاح به سيمون : — حول وجهك الى الحائط يا شقي

الفصل الرابع والعشرون

الدكتور نودين

وفتح الباب المؤدي الى الدهليز وأبصر سيمون رجلاً شيخاً
يستند الى عصاه فدخل الزائر الغريب وقد ارتدى رداء من
القطيفة السوداء ومن تحته صدره من جنسه وعلى ساقيه جرابات
من الحرير وحذاءه نصفي وأطراف الكلام ثوبه مطرزة وفبضة
عصاه من ذهب . فضحك سيمون وقال :

— أي المساخر هذه . وماذا تريد يا رجل

فاجاب الزائر بلطف : - انني لا أريد شيئاً منك ولكنك

ايها المواطن أنت تريد مني شيئاً وقد أرسلت تدعوني اليك

— اذا فانت الطبيب ؟

— نعم انا المواطن نودين

فصاح سيمون بدهشة : - أنت نودين رئيس الاطباء وقد
جئت بنفسك لزيادة زوجتي ؟

— وهل يدهشك مجيئي أيها المواطن سيمون
— كيف لا يدهشني مجيئك وطالما قيل لي أن نودين وهو أشهر
أطباء باريس لا يبرح المستشفى وأن الاشراف طالما توسلوا اليه أن
يعود مرضاهم فلم يقبل بل ان المرأة النمساوية تقسها لم تنجح في
حملك على زيارتها في فرسايل وكان جوابك « انا طبيب الفقراء
والمرضى في المستشفى ومن كان مريضاً وفتيراً فليأت الي في الدار
المسماة باسم الله وأما من كان غنياً ولا يريد دخول المستشفى فليطلب
طبيباً سواي لأن واجباتي للفقراء والمرضى لا تبيح لي مزايلة
مكاني » وقد روى لنا مارات العظيم انه لما وصل جوابك هذا الى
القصر ركبت المائكة عربها وذهبت اليك في باريس لتستفيد من
رأيك فهل الرواية صحيحة وهل أنت حتميقة الدكتور نودين ؟

— نعم أيها الرفيق

— وقد تركت المستشفى العظيم لزور زوجتي المريضة ؟
— أليست زوجتك من المرضى الفقراء ؟ أما هي امرأة من
الشعب الفرنسي المحبوب الذي وقفت حياتي وعلمي على خدمته ؟
ان الدكتور نودين لا يزال المستشفى من اجل ملكته ولكنه
يفعل بسرور من اجل امرأة من الشعب . والآن اسمح لي أن أرى
زوجتك فما جئت للكلام والحديث

ومشى الطبيب الى فراش المرأة وجلس على كرسي امامها وبدأ
يدرس حالتها فبسطت اليه يدها وكانت تجيب على اسئلته بصوت

ضعيف بينما سيمون يراقب بدهشة واعجاب ومن ورائه في زاوية
الغرفة جلس ابن ماري انتوانيت ذليلاً لا يتحرك الا انه رغماً من
اوامر سيمون تحول الى جهة السرير لا لينظر الى المرأة المريضة
بل الى الطبيب الجليل بهلابسه التي هي ملابس الأشراف والتي
رددت الى ذهنه حياته الماضية وقاعات سراي فرسايل وتجلت
اعينه اشباح الفرسان والاعيان وما لبث الطبيب ان قال لسيمون :
— ما بالك تنظر اليّ بامعان ؟

قال سيمون :

--- انني استغرب كثيراً كيف تجسر على السير في شوارع
باريس بهذه الملابس . فانها ملابس الاشراف ولو لبسها سواك
لكان القتل نصيبه وانت تجسر على هذا

--- لا تستغرب فليس في عملي شيء من الجرأة . فانما انا البس
الملابس التي تعودتها منذ سنوات كثيرة وقد كانت توافقتني في عهد
الملكية كما انها لا تزال موافقة لي في عهد الجمهورية . وقد صرت
شيخاً فلا اطيق الازياء الجديدة

فضحك سيمون وقال : - انا لا اعارضك ولكنني استغرب
انهم يسمحون لك بهذه الملابس ولا يتناولوك

— لو قتلوني ماذا يفعلون في المستشفى ؟ واذا قطعوا رأسي اعجز
من العمل لما كنت انا رأس المستشفى ولا سبيل الى من يقوم بمهامي
وبما انني رغماً من ملابسي الملكية لا ازال اشفي المرضى فان كبار
الزعماء يكتلون لي الحرية لانهم يعلمون ان هذه الملابس تستر قلباً
ديموقراطياً . اما الآن فدعنا من هذا ولننظر في مرض زوجتك انها

مریضة ومحمومة واخشى ان تسوء حالها اذا لم نعجل فی معالجتها
ونسقبها شراباً یبرد غلیظها

— عالجها ایها الطیب واشفها . او افقد عتلی فی هذا البیت
الملعون . وانما زوجتی مریضة من هذا البیت ومن هذه المعیشة لانها
لم تالف الخمول والجلوس کأنها فی سجن محرومة من الزهدة
والهواء النقی

— ولكن لماذا لا تخرج زوجتك الی الزهدة فتتمتع بالهواء النقی
— لانها لا تملك ذلك ولان هذا الشقی الصغیر جعل حیاتنا
مرة ووضعنا فی سجن دائم . انظر الیه فهو السبب الذی یحول دون
ذهابی الی المدینة وزیارة الندی والجلس او مقابلة احد من الناس
کاننی من المجرمین

فصاحت الزوجة من سریرها : نعم - نعم . هو السبب فی کل
ذلك لا بارک الله فیه وقد ازعجنی واقلقنی و غیر اخلاقی . انه ینظر
الیّ مرة اخرى ونظراته تخترق قلبی وتحرقه
فهجم سیمون علی الغلام وصاح به :

— کیف تجرأ علی نحویل بصرك الیها بعد ان امرتك ان لا تفعل
یا جرو الذئبة . سأ لقی علیک درساً لا تنساه

ولطم الغلام علی ظهره واراد ان یعید الکبرة الا ان یداً من الحدید
قبضت علی یده واذا بالدکتور نودین قد امسک وصاح به صیحة
مخيفة

— ماذا تفعل یا شقی

فتردد سیمون امام حدة الطیب ثم ضحك وقال :

— ما بالك ايها الطبيب تتصر له وهو يستحق العقاب
— قاتل الله العجلة ايها الرفيق ولكنني اعتقد انك رجل فاضل
فلم يرق لي ان اراك تفعل ما لا يليق بجمهوري وبفاضل ايضاً
— وما الذي فعلت

— انظر الى الغلام الباكي المضروب المهان الذاهل المرتجف
— ولكنه يستحق العقاب . فهو ابن الذئبة المرأة النمساوية
— ولكنه في الوقت نفسه انسان ثم هو صبي ضعيف لا حول
له ولا نصير وقد حرمتة الجمهورية من والديه وجعلته تحت رعايتك
لتعتني به وتربيته كما تربي ولدك . أكنت تضرب ولدك كما
ضربتة الان ؟

فصاحت امرأة سيمون من سريرها صيحة ازعجت زوجها
فقال :

— لا افعل ذلك مع ولدي ولكنه ما كان ليقلقني كهذا الغلام
فهو يزعجني من الصباح الى المساء فاذا امرته ان يغني معي ابي
ومتى وجب ان يسكت تكلم . هل تصدق ايها الطبيب انه بالامس
اقلقني من نومي اذ ركع ليلاً واخذ يصلي فازعجني وازعج زوجتي
فقاتلت زوجة سيمون : — ومن تلك الليلة ادركني المرض ولم
أعرف طعم النوم والراحة

فقال سيمون : — وسأريك الآن دليلاً على عصيان هذا الشقي .
تعال الى هنا يا غلام

فشى الفتى خائفاً الى سيده فقال سيمون :

— دعنا نغني الآن ليرى الطبيب انك عريق في المبادئ
well

الجهورية . وانك نسيت انك ابن المرأة المساوية . هيا بنا نشد
أناشيدها . عجل او اضربك . اسرع وابدأ بالشيد
فرفع الفتى بصره بانفة الى سيمون وقال :

— أنا لا أنشد لانني لم أنس والدتي العزيزة . ولا اقدر ان
اقول عنها كلمة سوء لانني احب والدتي العزيزة كثيراً...
ثم توقف الصبي عن الكلام اذ خنقته دموعه وحنى رأسه
منتظراً العقاب ولكن قبل ان تقع يد سيمون عليه صاحت زوجته
من فراشها قائلة :

— يا سيمون اقترب مني ساعدني على نزع الخنجر من صدري
فانني اموت . انا مائتة لا محالة

فاسرع اليها وضمها الى صدره قائلاً : - اي خنجر تعنين .
فهمس الطبيب في اذنه : - تمهل فهي تهذي لشدة الحمى والخنجر
الذي تشير اليه هو في قلبها وضميرها . فاذا شئت ان تسلم يجب ان
تبعد عنها كل ما يزعجها ولا تهيج اعصابها بل يكون كل شيء
حولها سائماً هادئاً . وسأرسل اليها علاجاً نافعاً وغداً صباحاً
اعود اليها . وانجح علاج لفائدتها الهدوء والسكينة

فطرد سيمون الغلام من الغرفة الى غرفته الصغيرة وهناك
جلس ورفع بصره الى السقف وعلى ثغره ابتسامة اذ سمع وقع
اقدام في الغرفة العليا فقال :

— هذه والدتي تمشي

ذلك لان سيمون لم يبلغ الصبي خبر مقتل والدته . ثم خيل له
ان والدته وعمته واخته اقبلن عليه وضممنه اليهن بحنان بل رأى

زوجة سيمون تدنو منه بلطف ومحبة فضمته الى صدرها وقبلته طويلاً وكانت تبكي وتقول له : — عفواً ايها الملك التاعس لا تقضي عليّ سأحسن معاملتك وانقذك من هذا الذاب . ما اتعس زوجي انه شوه وجهك بالضرب ولكنني كنت أتاألم لمصابك . ثم رآها وقد ركته فجأة وفتح الباب وسمع سيمون يقرل لزوجته :

— ماذا تفعلين في غرفة هذا الشقي

— حضرت لراقبه ولأأكد انه لم يهرب ويشكونا الى اولياء الامور بحجة اننا تركناه وحده

— لا تخافي وفضلاً عن هذا فقد حضر الدواء الذي ارسله الطبيب وغداً يأتي بنفسه ليرى تأثير العلاج

وفعلاً جاء الدكتور نودن في الغد . وكان سيمون عند حضور الطبيب قد صعد الى الغرف العليا ليمالغ الاميرات السجينات اوامر الحكومة وأمر الغلام ان يبقى في الغرفة الخارجية فاذا جاء الطبيب يفتح له الباب . ولذلك لم يكن سواه في الغرفة عند حضور الطبيب والباب المؤدي الى الغرفة الاخرى مقفل فلم تكن زوجة سيمون ترى او تسمع ما يجري وللحال قال الغلام للطبيب بصوت خافت :

— لقد احسنت اليّ امس يا سيدي ومنعت عني الضرب والاهانة فاريـد ان اشكرك وليس لديّ ما اظهر به امتناني غير هاتين التفاحتين وقد اعطوهما لي للعشاء امس وبما انني فقير الى هذا الحد ارجو ان تقبلهما مني^(١)

ثم اخرجهما الغلام من جنبه ودفعهما الى الطبيب . واذ ذاك

حدث ما لوراه سيمون لذعر واضطرب . ذلك ان الدكتور نودين الشريف الشهير العظيم رئيس أعظم مستشفى ركم بملابسه النمينة (امام الغلام) في ملابسه الرثة وتناول هديته وقال بصوت تخنقه الدموع :

— أنا أشكر جلاليتكم . انني لم احصل في حياتي على هدية أعظم من هذه الغاكهة التي تفصل علي بها ملكي التاعس وأقسم لك ان أكون خادمك الأمين

وقبل يد الغلام فسقطت على تلك اليد دموع الطيب الذي طالما نظر غير متأثر الى أعظم نكبات الانسان في أشد امراضه . ثم سمع وقع اقدام فنهض ودخل غرفة المريضة واذ ذاك عاد سيمون وانزوى الغلام في غرفته وانترب الطيب من المريضة فسألها عن حالها فاجابت : أنها سيئة وكان قلبها يحترق فلا يقر لها قرار ليل نهار وان منيتها قد دنت وأنها تفضل الموت فراراً من العذاب الاليم الذي تعانيه في هذا السجن الخفيف . فسألها عن آلامها كيف تشعر بها فأجابه سيمون : — عندي الخبر اليقين . فهي تتألم في كل عضو من جسمها لان آلامها ناشئة عن هذا المكان الخفيف . نعم ان ولياء الأمور شرفونا بثقتهم وعهدوا اليها حراسة الغلام ولكنها ثقة تؤدي بنا الى الموت اذ لا نطيق هواء السجن وسكيتها المخيفة والعزلة المملة فلا نرى الا الغلام وتخيفنا نظراته وقد كانت زوجتي قوية مسرورة فضعمت وزالت بهجتها وكانت اشد الناس انصاراً للجمهورية بل حضرت مقتل المرأة النمساوية . . .

فقاطعت زوجته جان ماري وقد نهضت من سريرها وقالت بحدة :

— لا تذكر تلك المرأة لئلا يسمعك الصبي وينظر اليّ نظرته الخيفة . لا تذكر ذلك اليوم الهائل فقد كان بدء مرضي وأظن ان الكونياك الذي شربناه يومئذ كان مسموماً ومن ذلك السم جاءت آلامي الدائمة وسأموت بدون ريب

فقال سيمون . — الحقيقة يا حضرة الطبيب اننا لم نتعود هذه المعيشة واذا طالت نموت

فقال الدكتور نودين : — اذا كان الأمر كما تقول فما بالك لا تستقيل وتتولى غير هذا العمل

قال سيمون : — لقد استقمت غير مرة فكان الجواب ان الوطن يأمرني بالبقاء حيث انا اذ لا يوجد من يقوم بمقامي . فقالت زوجته :

— أريد أن يفحص الطبيب جسمي فحصاً دقيقاً ولا اسمح بذلك وأنت هنا ياسيمون

فقال : — سأذهب عنكما ولكنني أستنكر هذه الأخلاق قال الطبيب : — بل هي أخلاق المرأة الفاضلة فانها لا تبوح بأمراضها الخفية لغير طبيبها

فقال سيمون : — انني سأذهب مع الغلام الى الدور الأعلى ريثما ينتهي الطبيب من عمله . فلما مضى وانفردا قال الدكتور نودين : — هاتي ما لديك عن مرضك ولا تكتمني شيئاً فقالت :

— أخاف ياسيدي أن تقشي أمري وأن يكون القتل نصيبي ونصيب زوجي

— ما أنا خائف . والطبيب مثل الكاهن يكتّم أسرار مرضاه

ومع ذلك فأنني آتيك بالدليل على أمانتي وأبين لك أنني عارف بما
يؤلمك . فاعلمي يا جان ماري سيمون أنك تشكين من ألم لا يعادله
ألم جسدي . ومرضك في ضميرك ويدعى مرض الندم والياس .
فوقتنا قصير وحديثنا طويل . ويجب أن نتكلم همساً لأن الجدران
في هذه الأيام لها آذان

وانتهى الدكتور من حديثه الطويل فوقف وقال المريضة :-
اعتمدي عليّ . ثقي بي كما اثق بك . أنك عازمت على القيام بعمل
شريف واذا تيسر لنا النجاح حسنت صحتك وزالت مخاوفك
وغفر الله لك سيئاتك لأن عرش الله محاط بشهيدين يشفعان لك .
فاعلمي كل شيء حسب ارشادي وبياني وخاطبي زوجك الليلة لتلا
تذعره المفاجأة بافشاء السر

— سأفعل . وأشعر الآن أن قلبي بدأ يرنح . هل تحضر غدًا
— لا . ولكنني سأرسل من هو ادرى مني في انجاز هذا
العمل وسيدكر عند مجيئه انه معاوئي فثقي به ثقة نامة وحادثه
طويلا فيما تكلمنا عنه الآن . انني اسمع سيمون عائداً فلو دعك
وانصرف فرأى سيمون واللام في الخارج

فقال سيمون : - ارى ان زوجتي اطالت في اطلاعك عن
جميع اسرارها فقد مضى على خلونك نحو ساعة ولولا أنك شيخ
لكنت من الغيورين

— انت اوفر عقلا من ذلك ويهمني ان تعلم ان زوجتي
لا تلبث ان تفقد عقلها او تنتحر اذا بقيت في التامبل اكثر من

اسبوع واحد وسيحل بك مثل ذلك اذا بقيت في هذا المكان
وتصاب بالسل

فقال سيمون مذعوراً : - وهل تظن انني معرض لمرض السل
- بل انت مصاب به فعلا الآن بدليل الأعراض الظاهرة
فاذا لم تتدبر طريقة للخروج من هذا المكان انتهى بك الحال الى
ما لا يحمد ومع ذلك فالأمر اليك
وانصرف الطبيب فعزم سيمون على تقديم استقالته في الغد

الفصل الخامس والعشرون

ابن اخت الماركيز

عاد الدكتور نودين الى مقره في المستشفى فقال له الحاجب ان
الرجل الذي جاء أمس لاستشارته عاد في غيابه وهو ينتظر داخلا.
فمضى قاصداً مقصورته فقال له خادمه هناك بعد أن تناول رداءه :-
ان الدكتور صوניה العجوز هنا مرة أخرى . وقد أصر على
انتظارك ويقول انه يريد أن يأخذ رأيك في مريض وانه لا يقطع
عن اللاحاح الى أن ترافقه الى بيت مريضه لأنك اقدر انسان على
شفاء الرجل

فضحك الدكتور نودين وقال لخادمه : - أنت جاهل لأنك
سمحت له بهذا الاطراء . ودخل الى مقصورته فاستقبله شيخ هرم
في مثل ملابسه وبينما كان الخادم يقفل الباب سمعه يقول : -

الحمد لله انك رجعت فقد طال انتظاري والان أتوسل اليك أن ترافقني في الحال الى مريض

ففتح الدكتور نودين باب مكتبه الخاص وقال لزاره : -

ادخل أيها الوطني صونيه واشرح أولاً حال المريض

وكان هذا كل ما سمعه الخادم إذ دخلا وأقفلا الباب وبعد قليل

خرجا وركبا عربة سارت بهما الى منزل في شارع مونارتر ففتح

الباب وسلم على الدكتور صونيه وقال : - أظن أن رفيقك هو

الدكتور نودين الشهير

— نعم وهو أقدر انسان على معالجة مريضنا . ثم صعدا السلم

ودخلا بيئاً ترك بابه مفتوحاً ثم أوصدا الباب بالنفل ومشيا الى غرفة

قرع صونيه بابها ثلاثاً وكرر العبارة الآتية ثلاثاً « ان الأطباء

حضروا لعيادة المريض »

ففتح الباب وظهر رجل أشار اليهما بالدخول فلما بلغا الغرفة

الداخلية قال صونيه : - هل نحن وحدنا قال الرجل : - نعم .

وفي الغرفة هناك غلامى المسكين المريض وأنت تعلم أنه لا يستطيع

الوشاية لأنه لا يبي شيئاً مما يجري حوله

فقال الدكتور صونيه : - أنا أعلم ذلك وقد جئتك حسب

وعدي بالدكتور نودين الشهير وصديق العائلة الملكية الحميم التي

أقسمنا الاخلاص لها حتى الموت

ثم تحول الى الدكتور نودين وقال : - انني لم اذكر لك اسم

الرجل الذي سألتك مرافقتي اليه لأن اسمه سر لا يملك افشاءه

إلا صاحبه

فقال الرجل باسمًا : - وأنا أبوح به الان فاعلم أيها الطبيب
أنني الماركيز جارجيز

فقال الدكتور نودين بلمهفة : - أنت الرجل الذي أراد أن
يساعد العائلة الملكية على الفرار ؟ خفست أملاكك في خدمة
الملكمة وخاطرت بحياتك في سبيل انقاذها ولم تنج من القتل إلا
بالفرار . أنت الماركيز جارجيز الأمين الخالص الشجاع ؟

— أنا جارجيز . واشكرك على الاطراء ولكنني لا أستطيع
قبول مديحك لي بحضور الرجل الذي يستحق كل اطراء أكثر
مني بل هو أجدر بالثناء من كل انسان . نعم أنني لا أستطيع قبول
المديح بحضور طولان اشجع الرجال وأكثرهم اخلاصاً وأمانة لانه
عنوان الاخلاص وقد جاهرت سيدتنا الملكة الشهيدة بذلك عندما
منحته أعظم ألقاب الشرف والتكريم اذ دعتة « الأمين » وهو
لقب يهب إلى الأبد

فوضع الدكتور نودين يده على كتف الدكتور صونيه
وقال : - صدقت أيها الماركيز أنه أعظم منا امانة وأكثر اخلاصاً
ولذلك فلما جاءني منذ أيام وأراي زجاجة عطورات الملكة تأييداً
لكونه طولان قبلت ان افعل كل شيء يطلبه مني ووافقت على
مساعيه جميعها لان اخلاصه يحمل كل انسان آخر على
الاقتداء به

فقال طولان (وهو المتشكر باسم وشكل الدكتور صونيه) :-
عفواً سادتي فلا شكر على ما هو طبيعي . لقد وقفت حياتي على
خدمة الملكة ماري انتوانيت وأقسمت ان اكون أميناً لها ولعائلتها .

فالآن وهي قد ماتت وعجزت عن انقاذها فاننا نسعى لا نتأخر ولدها وهذا ما يحملني على بذل كل جهد لتحقيق آمالها وقد شاء الله تعالى ان لا انقرد في عملي وان يشاركني فيه نبلاء القوم ثم بارك الله مساعينا بدليل اننا ونحن نهتم في تدبير طريقة للوصول الى ولي العهد السجين جاءتنا الصدف بطريقة موافقة . اذ في الساعة التي ذهبت فيها الى الدكتور نودين وافشيت له سري وعرفته بنفسي جاء بواب التامبل يطلب منه ان يزور زوجة سيمون

فقال نودين : - نعم انه اتفاق غريب . واذكر لكم انني لما رأيت ابن الملكة في ذله وحزنه ركعت أمام الملك الصغير وأقسمت في سري أن أكون مساعداً أميناً لطولان في تحقيق مساعيه واطلاق سراح الغلام

فقال الماركيز جارجيز : — وأقسمت أنا أن أحذو حذوك . ولئن كانت الملكة قد ماتت فان اخلاصنا لها يتجدد في خدمة نجلها نوبس السابع عشر . أنا اعلم أن البوليس لا يجهل وجودي هنا وانني متشكر باسم الوطني (أوراج) وانكنهم أمهلوني ليعلموا بقية أصحابي . على أن هذا لا يؤخرني عن العمل . فقد جئت لا نقذ الملك التاسع من عذابه . ولا أخفي عنكم أمراً فقد تمكنت من الحصول على مساعدة زعيم شريف غني كان أميناً للملك المقتول . أريد به البرنس دي كونده الذي أقمت في ضيافته هذه الشهور الأخيرة في (الغاندي) فقدم لي الأموال اللازمة وسيؤيدنا في جميع أعمالنا . فاذا تمكنا من انقاذ الملك الصغير وجد لدى البرنس مأوى حصيناً فيقيم في الغاندي محاطاً بأمناء الاقوياء .

وقد كانت الغمبة الكبرى حتى الآن في سبيلنا اننا لا نملك اخراجه من التامبل . أما الآن فقد اهدت الى طولان وبالاتفاق معه صار الامر ممكناً ولكنه صعب

فقال طولان : — أما الآن وقد حصلنا على مساعدة الدكتور نودين في وسعنا انقاذه . وقد دبرت الطريقة الموافقة وانجازاً لهذه الفكرة قصدت الطبيب لاسأله أن يزور الغلام المريض المقيم هنا مع الماركيز واذ ذاك جاء رسول السجن سيمون . والآن وقد حضر الدكتور نودين يجب أولاً أن يعطينا رأيه الأخير في حالة المريض فإذهب به يا حضرة الماركيز الى غرفة الغلام المريض لأن مصير ملك فرنسا يتوقف على رأي الدكتور نودين

دخل الدكتور نودين غرفة المريض فرأى غلاماً لا يتجاوز العاشرة من عمره وقد لقوه بالغطية لعماً محكماً وهو ضعيف القوى هزيل الجسم أصفر لون الوجه وشعره أشقر وقصير وعلى وجهه ملامح الخمول والسذاجة المتناهية . ولما رأى الرجال نظر اليهم بدون أن يبدي أقل حركة تدل على ادراكه ولولا أنه كان يتنفس لحسبوه ميتاً . فنظر اليه الدكتور نودين بامعان وقال :

— هذا الغلام أصم لا يسمع

— صدقت أيها الطبيب

— وهل هو ابنك ؟

فقال الماركيز : — بل هو ابن أختي بارونة تارديف التي قتلوها مع زوجها فتوليت العناية بالصبي وعند انتقالي من باريس سلمته الى بعض أصدقاء العائلة فلما رجعت بلغني انهم قتلوا ايضاً

ووجدت الصبي مهملاً فنقلته الى هذا المنزل الذي استأجرته باسم
(أوراج) وذهب طولان ليأتي بطبيب وكان من حسن الحظ انه
جاء بك فأرجو أن تشفق عليه وأن تقبله في المستشفى
— دعني أولاً أخفصه ثم أدي رأيي
و بعد أن خفصه خفصاً دقيقاً قال :

— أيها الماركر أن هذا الصبي لا يشفى وخير له أن يموت فراراً من
العذاب الـائم والذي أراه أنه قد يعيش سنة أخرى بعد أن يفقد
عقله وذا كرته فلا يبقى الا جسمه . أنه مصاب بمرض لا يلبث
أن يلهم جسمه ويحوّله الى عبيط . ولو أبيع لنا أن نضع يد العلم
موضع يد الله لكان من رأي أن نقتل هذا المخلوق الذي لا يعد
إنساناً ولا هو حيواناً ولا رجاء له في الحياة الا بالعذاب
فقال طولان : — وهل تعتقد يقيناً أن هذا الغلام لا يشفى

— أنه رأي يشاركني فيه كل طبيب

— وأنه لا يرجح اذا عاش ولا يخسر اذا مات ؟

— نعم . بل أعتقد أن موته راحة له من العذاب

— اذاً أنا أعطي هذا الغلام المريض وظيفة أنرف وأسمى .

أجمل حياته بركة لسواه ويكون موته أكليل نثار له . وأنت
يا حضرة الماركر جارجيز انني باسم الملك لويس السادس عشر
وباسم الشهيدة العظيمة التي أقسمنا أن نخلص في خدمتها واريد
بها الملكة ماري انتوانيت أطلب منك أن تعهد اليّ بهذا المخلوق
التاعس وتجعل حياته رهن ارادتي . انني باسم ماري انتوانيت
أطلب من الماركر جارجيز ان يعطيني ابن اخته هذا ليفعل

ما لا يتأخر كل فرد منا عن فعله في سبيل الغرض المقدس . أريد بذلك أن يعطي هذا الغلام حياته فدى لمولاه الملك لويس السابع عشر المسجون

عند ذلك ركع الماركيز باحترام عند سرير ابن اخته وغطى وجهه بيديه ثم نهض ووضع يديه على رأس الصبي وقال :

— أنك يا طولان قد خاليتني باسم الملكة ماري انتوانيت وبصفتي ولي أمر الغلام سألتني أن ادفعه اليك لتكون حياته فدى لحياة مولاه الملك . ان رجال ونساء بيتي لم يتأخروا في كل زمان عن أن يقدموا بسرور عظيم املاكهم وسعادتهم وحياتهم خدمة للملكهم وانما أتكلم بلسان شقيةتي التي سفكت دمها لتؤيد اخلاصها للعرش وباسم أسلافي أيضاً فأقول : — هذا آخر سلالة البارونة تارديف هوذا ابن أختي . خذه ليمرت أو يعيش من أجل مولاه الملك السجين لويس السابع عشر

الفصل السادس والعشرون

مداولات

فاتحت جان ماري زوجها سيمون بما ذكره لها الدكتور نودين فغضب أولاً ثم رضي أن يتخلص من معيشته المرة وأن يحدث الدكتور في الموضوع . ولما أصبح الصباح جاء الطبيب بملابسه المعروفة فأباح له الحرس الدخول ولم يلاحظوا أن تحت تلك

الملايس رجلا غيره تزيّا بزي الطبيب فلما دخل مع سيمون نظرت اليه الزوجة باستغراب فقال لها : — أنا رسول الدكتور نودين وقد ارسلني لاتفق معك على انقاذ الغلام . فقالت لزوجها :

— هذا هو الرجل الذي ينقذنا من العذاب الاليم . ثم أعطاها علاجاً فنهضت كأنها لم تكن مريضة وسارت بالرجل وزوجها الى غرفة الغلام وهولا يتحرك فقبل الرجل يده فلم يتحرك فقالت المرأة : — انه على هذه الحالة من الذهول فقد حاول زوجي أن يجبره على شتم والدته ومن ذلك الحين انقطع عن الكلام

فقال الرجل : — أنه يسمع ويتكلم ولكنه فضل الصمت حرصاً على كرامة والدته أنظري الى دموعه فقد سمعني وفهم كلامي . آه يسيدي العزيز اقسم أن أخدمك باخلاص وأن أنقذك ولو مت في سبيل ذلك . انظر اليّ يا مولاي انني أبوح لك ولهذين الزوجين بسري لتعلم من أنا وتثق بي وتعلم أن الذي يجثو عند قدميك محب لك . افتح عينيك يا ملك فرنسا وانظر هل تعرفني ؟

ونهمض الرجل واقفاً ونزع عنه الرداء الأسود ووقف أمامهم بثوب الحرس الوطني . فصاح سيمون : — انه

فقاطعه الرجل وقال : — لا تلفظ اسمي فيجب أن يعرفني هو اولاً وينطق به وانت يا مولاي اقنع هؤلاء انك سلم العقل والذاكرة وتعلم ما يجري . انظر اليّ واذا عرفتني الفظ اسمي

فتبسم الغلام وانتبه وقال : — طولان . المخلص

فقال الرجل : — نعم انا طولان المخلص لك ولعائلتك

ثم اتفق مع سيمون على التدابير اللازمة لأتخاذ الغلام في اسبوع واحد . ذاك أن أحد موظفي جمعية الأمن العام كان مريضاً وينتظر أن يموت في ثلاثة أيام فيخلو منصبه ويخلفه سيمون فيه . وانصرف طولان الى المستشفى وعلى الأثر ذهب الدكتور نودين الى لجنة الأمن العام وأعطى تقريره عن الغلام وزوجة سيمون فوصف حالة الغلام وصفاً مخيفاً وأطرى سيمون وزوجه . ولما سأله كيف يصلح حال الزوجة فارتأى نقلها وزوجها من التامبل قالوا ومن يعتني بالغلام قال ان الغلام في حالة مرضية لا يعيش معها طويلاً لأنه مصاب بالسل وضعف الدماغ ولا يلبث أن يتحول الى حالة لا تستلزم شيئاً من العناية فسمحوا لي أن أتردد على الغلام مراراً وآتيه مما يسليه في أيامه الأخيرة من الألعاب التي يلهو بها أمثاله . وأخيراً سمحوا له بما أراد وقرروا اعطاء سيمون أول وظيفة تخلو

الفصل السابع والعشرون

فرار ولي العهد

بناء على أوامر اللجنة ارتأى سيمون أن يحضروا حصاناً خشبياً كبيراً يركبه الغلام ويلهو به وبمساعدة طولان والماركينز اشترى الحصان المطلوب وأوصلوه الى سجن ولي العهد بكل عناية . ولما خلا الجو لسيمون وزوجته فتباح جوف الحصان الخشبي

وأخرجاه منه ابن أخت الماركيز جارجيز ونزعوا ملابسه وألبسوه ثياب ولي العهد وجعلوه محله في فراشه وألبسوا ولي العهد ثياب غلام قروي وقصوا شعره وأوصوه أنه بعد الآن سيكون ابن اغسالة ثم وضعوه في سلة الملابس المستعملة التي ترسل الى الغسالة ووضعوا فوقه كمية كبيرة من ملابس زوجة سيمون وفي الوقت المعين لخروج سيمون وزوجته نهائياً من التامبل انتقلا بأمتهمهما والسلة الكبير وفيه ولي العهد

ونفاصل هذا الفرار ذكرتها زوجة سيمون سنة ١٨١٩ لراهبات الرحمة اللواني اعتنن بها في مرضها الاخير وفي سنة ١٨٥١ كررت راهبات المستشفى النسائي أقوال جان ماري سيمون التي ماتت سنة ١٨١٩ وذلك أثناء القضية المدنية التي أقيمت على دوق نورماندي المتهم بأنه ادعى زوراً انه الملك لويس السابع عشر ولم يتمكن من اثبات دعواه

وكان فرار ولي العهد على الطريقة المذكورة في ١٩ يناير سنة ١٧٩٠ فلما أوصلوه الى خارج باريس دفع طولان لسيمون المال لتتفق عليه فقال سيمون : - ألا يفشي سري أحد ويشي بي الى الحكومة ؟ قال : - لا تخف فانه لا يعلم سرك غيري وحرصاً مني على سلامتك أفهمت جميع رفاقي انني خدعتك وأنتك تجهل أمر فرار الغلام فلا يدري سرك سواي وأنا لا أفشي السر

فلما افترقا قال سيمون في نفسه : - اذا مات طولان بت أميناً على نفسي فالأوفق أن أدبر طريقة لهلاكه . وما لبث أن ذهب الى لجنة الامن السام فقال لهم : - انني أهم طولان بأنه يريد انقاذ ابن

التمساوية من التامل ولله يمكن من ذلك الان لأنني لما زائلت
المكان لم يكن خلقي قد حضر وبقي الغلام وحده فارجوكم أن
ترسلوا بعض رجال البوليس الى منزلي غداً لأدفع اليهم الخائن

الفصل الثامن والعشرون

• موت طولان

عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي دخل طولان منزل
سيمون الموظف الجديد فقال : - رأيت أنني حريص على
مواعيدي ولم املك الصبر ولعلك لم تعدل عن فكرتك فتعطيني
الهدية الثمينة التي لديك

فقال سيمون : - ان زوجتي أرادت أن تقدم لك الشعر بيدها
وهي غائبة الان فانتظرها قليلاً إن كنت راغباً في الحصول على شعر
ولي العهد

فقال طولان : - نعم انني راغب في ذلك لأن شعر مولاي الملك
الصغير هو أمن شيء عندي

قال سيمون : - لا تبالغ يا هذا فان زجاجة الاملاح المنعشة
التي أعطتك اياها المرأة التماساوية هي أمن لديك من كل شيء آخر
فهل هي باقية معك ؟

قال طولان : - ان مفارقة حياتي أسهل من مفارقة تذكاري
ماري انتوانيت

فقال سيمون ضاحكا : - اذا فانظر أيهما أفضل هديتها
أو حياتك

ثم فتح الباب فدخل رجال الامن العام ومعهم البوليس فقال
سيمون : - أستمعتم كل شيء ؟ قالو : - نعم وقبضوا على طولان
واستاقوه الى السجن

أما سيمون فانه تنعم بمال الخيانة مدة قصيرة . وبعد مضي سنة
على هذا الحادث فقد عقله وحاول الانتحار ثم مات في مستشفى
(بيسار) وعاشت زوجته الى سنة ١٨٢١ في مستشفى باريس

وفي اليوم التالي ذهب جميع أعضاء لجنة الامن العام الى التامبل
فوجدوا على الفراش غلاماً يئن وقد انهكته الحمى وهو في ملابس
ولي العهد ولكنهم لم يتمكنوا من القول اذا كان هذا
الصبي - وقد تورم وجهه وكثرت البثور في جسده - هو لويس
شارل ام سواه . أما الذي كان يشعل النور في غرفته يومياً فقال
انه غير ولي العهد وحسبوا أن المرض غير سجنته فاستدعوا الدكتور
نودين وسألوه رأيه في الصبي فأكد لهم انه هو الغلام الذي رآه
هناك لما دعي لمعالجة زوجة سيمون ولكن المرض وقص شعر
رأسه غيرا شكله . وكذلك قال سيمون فقرر وا انه الغلام نفسه
وان يكتبوا ظنونهم حتى لا يستعين بها حزب المك . اما الغلام
فانه مات في التامبل في ٨ يونيو سنة ١٧٩٨

اما طولان فقد قبض عليه في ٢٠ يناير وفي شهر مايو حكموا
باعدامه وفي اليوم نفسه حكموا باعدام مدام اليصابات شقيقة
لويس السادس عشر لانها خبرت اخوتها بواسطة طولان . اما هذا

فلما بلغوه الحكم طلب ان يقتلوه في اليوم المعين لاعدام اخت
الملك وان يبقى بجانبها ساعة اعدامها
فقال القاضي : - اذا يكون اعدامك غداً لانه اليوم المقرر
لاعدامها هي

ولما اصبح الصباح مشت من السجن ثلاث عربات تقل كل
واحدة منها ثمانية من المحكوم عليهم بالاعدام رجالا ونساء من
اعظم اشراف فرنسا وقد لبسوا اخر ملابسهم كأنهم يذهبون الى حفلة
رسمية . وكان جميع المسجونين من الشرفاء قد التمسوا شرف الاعدام
مع الأميرة والذين ابيح لهم ذلك فاخروا به وقالوا : - اننا نشترك في
التشريفة الملكية الاخيرة . ولما وصلوا ترجلوا وصعدوا الى حيث
كانت آلة الاعدام وكان المجلس قد قرر ان يكون آخر الذين
يعدمون طولان وقبله الأميرة اليصابات اخت الملك والتمس الرجال
ان يتقدموا السيدات الى الموت فمشوا الى الجلاد الواحد بعد
الآخر وكانوا اذا مروا بالأميرة احنوا باكرام عظيم كأنهم في حفلة
راقصة وكانت تشكرهم بابتسامة فلما اعدموا اثني عشر رجلاً
حصلت فترة ريثما مسح الجلاد الغيلوتين من الدماء ثم جاء دور
السيدات فالتمسن جميعاً ان يسمح لهن بعمامة الأميرة وبعد تقبيلها
ذهبن الى الموت باسمات الى ان بقي طولان والأميرة فذالت له :
— عن قريب سأكون مع اخي واختي . هات يدك يا اخي الأمين .
وسرني الى الموت ومتى وصلت الى دار الأبدية ابسط يدي اليك
لأذهب بك الى ماري انتوانيت فأقول لها : « ايتها لأخت العزيزة
هذا هو القلب الوحيد الأمين المخلص لك في العالم وقد جمعتك به

الى السماء » واعلم يا طولان ان اشرف لقب للشرفاء هو الأمانة وقد
قدسه الله تعالى في قوله « كن اميناً الى الموت فاعطيك
اكيل الحياة »

واذ ذاك فرغ الجلال من اعدام ماركيزة كروسول دامبواز
وصاح :

— يا اليصابات جاء دورك

— أأ آتية

وصعدت الى النطم وتبعها طولان فوضع يده على ذراعها وقال :
— ايها الأميرة اريد ان اطلعك على سر كنت قد اقسمت
أن لا أبوح به لحي . اما الآن فانك صرت في عداد الخالدين ونعمة
الله تكال جبينك واريد أن ادخل على قلبك فرحاً قبل صعودك
الى السماء . ذلك السر المصون هو أن السلام المسجون الآن في
التامبل ليس ولي العهد . لقد انجزت وعدي للملكة . وأنتقت
ولدها وهو الآن في (الفاندي) برعاية وعناية البرنس دي كوندني
فصاح الجلال : — تعالي يا اليصابات أو نأتي بك قهراً

— قادمة . الوداع أيها الأمين . حقاً لقد اوجبت لي سروراً
عظيماً فاشكرك والآن قبل شفتي . اعط اختك قبلة الوداع ايها
المخلص . الوداع يا اخي

فقهلها باحترام وصعدت وبقي طولان راكماً ينظر اليها الى أن
فرغوا من اعدامها وجاء دوره فوضع رأسه تحت سيف الجلال
وقال بصوت عال : « الله محبة » وقضي عليه

الكتاب الخامس

الفصل التاسع والعشرون

لويس شارل

كان البرنس دي كوندي يتمشى في مقصورته مضطرباً لأنه قرر الآن ابعاد الغلام من قصره خوفاً عليه من اعدائه و بعد قليل دخل فتى في الثانية عشرة من عمره حسن الهيئة جميل الطلعة طويل القامة فاحرم البرنس وفادته وضمه اليه مراراً ثم جرى لهما حديث علم منه البرنس ان الفتى لا يزال يذكر ما جرى له من المصائب وصرح له كيف انقذوه فقال انهم بعد ما اخرجوه من سل الغسيل علم ان المركيز دي جارجيز كان متنكراً بملابس الغسالة وانهما لبنا الى المساء فغيرا ملابسهما وركبا عربة الليل بطوله واخبره المركيز انه ذاهب به الى البرنس وسيقيم في بعض قصوره متنكراً وان لا يذكر اسمه ولقبه لاحد او يعيدونه الى سيمون فاخبره البرنس دي كوندي ان اشد خصومه هم اقاربه وفي مقدمتهم عمه الكونت دي بروفنس الذي يرجو ان يصير ملكاً ولذلك فهو لم يبلغه خبر نجاته من السجن واخيراً استدعاه الكونت وسأله عن الغلام الذي يعتني

بتريبته وان بعضهم زعم انه ولي العهد ولكنه ارسل من رآه فلم يجد فيه اقل شبه للملك

ثم افهمه البرنس ان من مصلحته كتمان امره الى أن تأتي الفرصة الموافقة للمجاهرة بامره والمطالبة بحقوقه وان الاوفق الآن أن يوجد في مكان لا يوجب الظن فيه فيأمن على نفسه وأنه يجب أن يذهب الى (مايانس) وهو حصن على نهر الرين تحتله جنود فرنسا بقيادة الجنرال (كليبر) ثم أفهمه ان كليبر هذا من انصار الملكية قلبياً مع انه يخدم الجمهورية . قال البرنس : - وقد افشيت هذا السريه مع رسول مخلص فاتفق معي على أن تكون ابن اخته . وارسل ياوره الى (كوبلنتز) ليذهب بك اليه . ولدي جميع الاوراق التي تثبت حقيقة امرك وعليها توقيعى وختمى مع شهادات اسانذتك وحراس القصر يوم وصولك

وبعد ان وعده الشاب انه لا يسيء استعمال الاوراق وان يدفعها الى الجنرال كليبر ليعتني بها اعطاه اياها وودعه قائلاً وقد رجع امامه :

— الآن اودعك يا مولاي الملك واعترف انك لويس السابع عشر ووارث العرش الحقيقي واقسم ان لا اعترف بسواك ملكاً مادمت حياً

فقال لويس شارل : - وانا يا برنس دي كوندي اقبل عهدك هذا واذهب الى منفاه

وقبل البرنس يد الشاب ومضى فلما وصل الى مايانس احسن الجنرال كليبر مقابلاته ومعاملته وكان يدعوه باسم لويس واكتسب

الشاب محبة القائد فكان ينام معه في غرفة واحدة وياكل على مائدته ويرافقه في الاستعراض العسكري فكان يدر به ويعلمه الفنون العسكرية وذاع بين المعسكر انه ابن شقيقة القائد وصار محبوباً من الجميع

الفصل الثلاثون

في الشرق

وتوالت الاعوام الى ان كان ١٩ ابريل سنة ١٧٩٨ فسافر الجنرال بونابرت مع اسطوله الى الشرق يرافقه الجنرال كليبر ومعه ابن اخته لويس فقضى زمناً في مصر وسوريا مع الجيش الفرنسي الى ان قرر الاطباء ان حالته الصحية تستلزم رجوعه الى فرنسا وقرر الطبيب (كورفيشار) ان طقس مصر لا يوافق صحة الشاب فاعترض لويس وسأل الجنرال كليبر لماذا لا يذهب هو ايضاً الى فرنسا فاجابه بما معناه : - ان بونابرت لا يرضى عن رجوعه بل يريد العودة وحده الى فرنسا ليكون وليّ الامر فلا يزاحمه مزاحم وجهز بونابرت اسباب رحيله الى فرنسا سراً على ان لا يعلم جيشه في مصر بعزمه على السفر الا بعد رحيله وجعل الجنرال كليبر وكيلاً عنه في غيابه فذهب هذا الى الجنرال ديساي صديقه الحميم وقد تقرر ان يرافق بونابرت الى فرنسا فاجتمعا في خلوة زمناً طويلاً وكان لهما حديث سري ثم عاد الى منزل الجنرال كليبر ودخلا غرفة

الشاب لويس فانحنى الجنرال ديساي امام الشاب فبسط الشاب يده للسلام فقبلها القائد فقال لويس :

— ما هذا ايها الجنرال ؟

— انني اكرم البؤس والماضي . والدمعة التي سقطت على يدك هي خاتم اخلاصي لك وكنمائي لسرك واقسم ان اخدمك بدمي واحافظ بحياتي على الاوراق التي دفعها الي الجنرال كليبر

ثم ودع لويس الجنرال كليبر وكان وداعهما ابدياً لا لقاء بعده

وعاد بونابرت الى فرنسا وفي ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ صار القنصل الاول للجمهورية الفرنسية وفي اواخر سنة ١٨٠٠ وصلت البارجة (النسر) من مصر الى فرنسا تحمل الى الجنرال ديساي رسالة ضخمة ضمنها أوراق ذات قيمة وكية من النقود والجواهر وضمنها ايضاً رسالة مختومة باسم ياورالجنرال ديساي وهي وصية الجنرال كليبر قائد عموم الجيش الفرنسي في مصر وكان قد دفعها مع الجواهر وسائر الاوراق الى الجنرال مينو على ان يرسلها بعد وفاته الى الجنرال ديساي وكان كليبر قد قتل في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ فجعل الشاب لويس وارثاً لثروته فلما اخبره الجنرال ديساي انه أصبح يملك مليوناً من المال اجابه :

— حبذا لو انها مليون جندي استعيد بهم عرشي

— دع عنك هذا الكلام والآن يجب وضع اموالك واوراقك الرسمية لدى رجل قادر على صيانتها ولا ارى افضل من الميسو فوشيه رئيس البوليس

فصاح الشاب : - ان فوشه هو الذي وافق على قتل والدي وهو أشد انصار الجمهورية

فقال الجنرال ديساي : - انه أوفى رجل للعناية بك وبما لديك فهو يحميك ويصونك واذا كان اليوم خصماً لنا فقد يكون في الغد اعظم نصير وأوراقك مأمونة في حوزته ^(١)

وتوالت الايام وكان النصر حليف بونابرت الى ان انتصر في واقعة مارنجو فوزاً باهراً وفيها قتل الجنرال ديساي وجرح ياوره لويس فماد الى باريس لا رفيق له ولا نصير فذهب الى فوشه فاحسن هذا مقابله وخاطبه بلقب الجلالة واستغفره عما مضى واثني ثناء عاطراً على ماري انتوانيت فمال اليه لويس ووثق به ووعد ان يستشير في جميع اموره مشروطاً عليه كتمان سره عن كل انسان فاقسم ان يفعل ثم لما اظهر لويس تخوفه من بونابرت اذا علم حقيقة امره قال له فوشه :

— لا تخف شراً . انني لا ابلغه أمرك . ولكن لئلا يسيء الظن بمقدرتي في رئاسة البوليس فاني سأعتمد الى الحيلة لانقاذك واخبر القنصل الاول انك قد مت في واقعة مارنجو ثم استحضر ورقة تفيد ان ياور الجنرال ديساي مات متأثراً من جراحه في المستشفى — ولكن كيف استطيع ان اثبت حقيقة دعواي اذا كنت قد مت ودفنت أولاً وثانياً

— ثبت ذلك من اوراقك ومن شهادتي ايضاً في الوقت الموافق فاحرص على الاوراق ولا تتركها ليل نهار . واليك اوراق ثروتك

(١) كلمات الجنرال ديساي . « مذكرات دوق نورماندي » صحيفة ٦١

فقد وضعتها لك في بنك فرنسا وتستطيع سحبها بهذه التحويل
وسأعطيك الآن اسماً جديداً الى ان تعيد اليك فرنسا اسمك الصحيح
فيكون اسمك من الآن فصاعداً « بارون دي ريتشموند » وسأجهز
الاوراق الرسمية لهذه الغاية ومتى عدت الي غداً اعطيك الاوراق
الرسمية الصادرة باسم بارون دي ريتشموند . فلما انصرف لويس
تبسم الداهية فوشه وقال في نفسه :

— يا لك من احمق . ان بارون دي ريتشموند لن يكون لويس
السابع عشر ولكنه يكون آلة في يدي لأكبج جراح القنصل
الاول الراغب في الملك والكونت دي ليل الذي يدعي انه صاحب
الارت الشرعي

الفصل الحادي والثلاثون

فوشه

كان القنصل الاول يتمشى في مقصورته مضطرباً قلقاً وقد
ظهرت على محياه جميع علامات الغضب والتأثر وهو من حين الى
آخر يلفظ كلمات كأنها سهام جارحة موجهة الى رجل وقف
عند الباب بقرب مكتب حافل بالاوراق . هذا الرجل هو فوشه
الذي كان سابقاً رئيس بوليس مدينة باريس فابعده القنصل الاول
عن هذا المنصب فاكتمى بوجوده عضواً في مجلس ادارة الجمهورية.
جاء فوشه اليوم الى التويلري ليقابل القنصل الاول مقابلة سرية

وما لبث بونابرت أن وقف امام فوشه ورماء بنظرات حادة وصاح به غاضباً :

— انا اعرفك يا فوشه ولا تقدر ان تخذعني بطواهرك وعدم مبالاةك . وستعلم انني لا أخافك ولا أخاف انصارك . انت واهم في انك تخيفني فتحميلني على مشترى المر الذي لديك بالثمن الغالي ولكن ستعلم انك مخطيء وانني لا ادفع ثمناً لأمر ربما استطعت الاهتداء اليه بدون معونتك . فاحذر يا تاجر الاسرار . لديك جواسيسك ولكن لدي رجال بوليسي وهم يطلعوني على كل شيء . فقد ذاع انك تراسل قوماً يقيمون خارج فرنسا

— لم أعلم حتى الآن ان الجمهورية تمنع انصارها الامناء عن ارسال التحارير الى الخارج

— بل هي تمنعهم عن مراسلة خصومها . اسكت يا هذا ودع عنك المراوغة . والزم الصراحة . انك تراسل كونت دي ليل — انت تعلم ذلك يا حضرة القنصل لأنني تشرفت فعرضت عليكم رسالة من مدعي الملك ارسالها بواسطتي اليكم

— وهي رسالة منكرة . لامعنى لها ولا قيمة . فان كاتبها الأحمق يطلب مني ان أعيده الى فرنسا وان اختار المنصب الذي اریده في حكومته . حقاً انه لا هو ج وقد فقد هــ داه . يريد مني أن اختار لنفسي منصباً في حكومته ! وسأفعل ولكن عند ذلك لا يبقى محل بقربي لجماعة البوربون الذين نبذتهم فرنسا كما تنبذ السم الزعاف . ولن يكون لهم مكان فيما بعد في هذه البلاد . لأن فرنسا تكرهمهم وهي ستقيم لنفسها بناية جديدة من القوة والمجد ولكن لا

حل فيها المبوربون . فاعلم هذا ايها الدساس ولا تشيد لنفسك قصوراً في الهواء . والان أطلب منك ان تعترف بما لديك لأنني سأشكوك انك خائن ومن الحزب الملكي

— مولاي انني لا اتجنب هذه التهم واعتقد ان فرنسا تراقب باهتمام عظيم سير تلك المحاكمة التي ترفع النقاب عن سر عظيم . فتعلم الأمة الفرنسية بواسطة محاكمتي ان وارث العرش الحقيقي لم يمت في (التامبل) بيد سيمون الاسكاف بل لا يزال حياً وهو الوارث الحقيقي للتاج وهي بشرى يفرح لها الحزب الملكي

فصاح بونابرت غاضباً وقال : — سأبدل فرحهم بكسر وسيعلم جميع اعداء فرنسا ان الحسام في يدي وانني اضرب به خصومها في الخارج وفي الداخل ايضاً . وان فرنسا قلدتني هذا الحسام فانا لا اتركه ولو طالمني بتركه جميع ملوك اوربا بل لوبعث جميع آل بوربون من قبورهم . انا سيف فرنسا الحي فلن يخضع هذا السيف لصولجان بوروبوني . وسواء عندي اكان هذا البوروبوني يدعو نفسه لويس السابع عشر أو الثامن عشر . فاذكر هذا يافوشه واذكر ايضاً انني اقول وأفعل ولو قامت الدنيا في وجهي

— انا اعلم ذلك يا حضرة القنصل فقد منحك الله لسعادة فرنسا ارادة حديدية وعقلاً نارياً ولم يقدر لك أن تزين رأسك باكاليل الغار فقط بل بالتيجان ايضاً

— هذا كلام غير لائق فأنني خادم الجمهورية وليس فيها تيجان

— واي رأس أولى بالتاج من رأس القنصل بونابرت الذي جعل

جمهورية فرنسا منافسة لشقيقته في اميركا الشمالية

— انني لا ارتاح الى ان اكون واشنطون فرنسا
— ومع ذلك فانت هو . والفرق بينكما ان واشنطون فرنسا
لا يقيم في البيت الابيض الذي بنته الجمهورية بل يقيم في
التويلري وقد تناوله بصفتة وارث ملوك فرنسا . انك يا حضرة
الجنرال قد ورثت ملوك فرنسا ومن جملة هذا الميراث التاج فما
بالك تقبل الارث الواحد وترفض الآخر ؟

— دعنا من هذا . أنت تضمّر عملاً تظنه يقوى على ارادتي
وهذه السلطة التي تتوهمها تدعى لويس السابع عشر . لا تهز
رأسك . انت الذي قضيت على لويس السادس عشر بالموت تعلم
معتوهاً من الناس ان يزعم انه ابنه وخليفته . تريد أن تكفر عن
جريمتك في قتل الملك فتوجد من الوهم حقيقة ومن الخيال ملكاً

— لا وهم ولا خيال أيها الجنرال فان الملك المنكود الحظ حي...
— أنت تعترف أخيراً بالسر الذي طالما حاولت كتمانها . وقد
تمكنت من حملك على افشاء سرّك فلا نجاة لك بعد الآن الا متى
دفعت اليّ الذي تريد ان تستعمله آلة لغاياتك

— حقاً لقد تغلبت علي بالحيلة فانت قادر في الحيل مقدرتك
في الحروب وبدلاً من معارضتك سأكون آلة في يدك اذا انت
رضيت بي

— اي اذا انجزت شروطك ؟ فما هي تلك الشروط . ماذا تطلب
تكلم بحرية

— أنك يا حضرة القنصل أبعدتني عنك فصرت لا تثق بي
وسلبتني منصب وزارة البوليس ودفعته الى خصمي رينييه فالمني

عملك لانه صيرني في نظر الناس ساقط المقام وتوهموا ان بونابرت
 سيء الظن بي . وتوهم خصومك أن اعراضك عني يفيدهم فيكتسبون
 عدواً لك ولذلك جاءني الرسل من أرباب الدسائس على اختلاف
 ميولهم من الكونت دي ليل ومن الملكيين في الفاندي ومن متطرفي
 الجمهوريين وعرضوا عليّ الانضمام اليهم فتظاهرت بالميل اليهم
 جميعاً وأطلعوني على مقاصدهم وأنا في هذه الساعة حليف الملكيين
 والجمهوريين في وقت واحد . مهلاً ياسيدي الى أن أنتهي من
 حديثي . نعم انني تحالفت مع جميع هذه الأحزاب وأنا غيور في
 خدمتهم فالحزب الاول الجمهوري وهو يكرهك لانك استأثرت
 بالسلطة . والثاني حزب الملكيين وهم يريدون أن يجلسوا الكونت
 دي ليل على العرش . والثالث حزب لويس السادس عشر وهم
 يريدون أن يجلسوا على العرش يتيم التامبل باسم لويس السابع عشر .
 والغاية الأولى التي يسعون اليها جميعاً هي التخلص من القنصل
 بونابرت . ولذلك اتفقوا على ما يأتي : يتولى العرش زعيم الحزب
 الذي يتمكن من قتلك ويتنازل غيره عن مطالبه فاذا تمكن جمهوري
 من قتلك تسود الجمهورية فاذا قتلك أحد رجال الملكيين تنازل
 الحزب الجمهوري عن حقوقه ويرضى أن يؤخذ رأي الامة في هل
 تريد أن تكون ملكية أو جمهورية . أما أنا فاني صرت عضواً
 في جميع هذه الجمعيات السرية لا أقف على أسرارهم فأدركت غايتي
 وصرت أستطيع أن ألقى الشقاق بينهم مستمناً بالحزب الثالث
 أنصار لويس السابع عشر يتيم التامبل وبواسطة عطفي على هذا
 الشاب أبعدت عدداً كبيراً من الانصار عن الكونت دي ليل بل

أن بعض الزعماء الذين جاءوا باريس لنصرة لويس الثامن عشر
حنوا الركبة والرأس بالامس أمام لويس السابع عشر
— هذا غير صحيح وحديث خرافة يدخل الرعب على الاطفال

ولا يهم الرجال . وليس في باريس جمعيات سرية
— أيها الجنرال اذا كان وزير البوليس رينيه قد أبلغك هذا
الرأي فهو لا يعرف شيئاً من أحوال منصبه . وأؤكد لك وجود
جمعيات سرية في باريس ولا ينبئك مثل خبير فأنني عضو رسمي
في أربع جمعيات منها

— وكيف صارت أربع جمعيات الآن

— انني أتكلم عن الجمعيات السرية اذ ليس كل جمعية سرية
جمعية دسائس والجمعية الرابعة التي اشير اليها الآن لا تستحق ان
تدعى جمعية دسائس لانها ترمي الى القتل والثورة ولا تستعين
بالخنجر والبندقية

— وما اسمها ياترى ؟

— اسمها الجمعية البونابرتية . بل اسمح لي ان اقول همساً لان
للجدران آذان . انها جمعية الحزب الامبراطوري

— وما تعني بهذا ؟

— اعني يا حضرة الجنرال ان رأسك لم يخلق ليكلل بأكليل
الغار فقط بل بالتاج أيضاً . ولا سبيل الى قتل الدسائس الثلاث
الا بالواسطة التي ارتأتها الجمعية السرية الرابعة . فاذا شئت ان
تذهب مساعي المسكين والجمهوريين سدى وان تدوسهما بقدميك
فان فرنسا تحتاج الى امبراطور

— ولعلك تريد ان تجعل لويس السابع عشر امبراطوراً على فرنسا ؟

— لا يا حضرة القنصل وانما اريد ان يكون امبراطور فرنسا القنصل بونابرت

فارتجف القنصل واجال بصره في المقصورة التي كانت مقصورة لويس السادس عشر كأنه يريد ان يتأكد انه لم يسمع احد كلمات فوشه الخطيرة وما لبث أن قال : وهل اعضاء جمعيتك السرية الرابعة كثار العدد ؟

— في جملتهم الشعراء والعلماء وبالاكثر الضباط والجنرالية وعددهم زداد يومياً وبما انني لحسن الحظ لا ازال عضواً في مجلس الشيوخ فأنا ابذل جهدي لاستمالة اهم الاعضاء الى الانضمام الى جمعيتي السرية الرابعة . واذا تحققت آمالي لا تلبث هذه الجمعية ان تصبح علنية فيلتمس منك مجلس الامة رسمياً ان تضع حدا لجميع هذه الدسائس وان ترأس فرنسا وتقبل التاج الامبراطوري الذي يقدمه لك المجلس المذكور

وبعد حديث طويل جاهر فوشه بشروطه لخدمة القنصل واهمها ان يعيده لوزارة البوليس

فقال بونابرت : — والآن نعود الى الشخص الذي تقول انه ابن لويس السادس عشر . فهل هو خيال ام حقيقة ؟

— بل حقيقة وهو موجود فعلاً

فضحك بونابرت مقهقهاً وقال :

هذه حكاية قديمة . كان الجنرال كليبر يصدقها لسلامة طويته . واذكر بعد موته انهم جاءوني برسالة كان قد كتبها اليّ قال فيها ان

الشاب المعروف بابن أخته هو في الحقيقة وارث ملك فرنسا
وسألني ان اتولى العناية به . وللحال امرت بالبحث عنه وكان ذلك
بعد معركة مارينجو وكان المسيو لويس ياوراً للجنرال ديساي

— نعم كان كذلك الى ان قتل الجنرال

— وكان الشاب قد جرح في المعركة ونقل الى المستشفى ومن
ذلك الحين انقطعت عني اخباره فلم تفلح مباحثي في البحث عنه .
ان ياور الجنرال ديساي حارب بشجاعة وحمل جثة رفيقي فاستحق
الترقي وارتدت ان ارفع رتبته فلم اجده وحسبت انه مات الى ان
جئتني الآن بجميانه دسيمة يراد منها اعادة لويس السابع عشر الى
العرش . اذاً فهذا المدعي لا يزال حياً وفي القوم من يصدق حكايته
— انه يا حضرة الجنرال قليل الكلام ولكن اوراقه وبراهينه

افصح من بيانه وتدل على ان دعواه صحيحة

— اود ان ارى هذه الاوراق

— انه حريص عليها فلا يتركها دقيقة علماً منه انها رأس ماله
وانها ضمانه حصوله على التاج

— اذا جئتني به فاستولي عليه وعلى اوراقه . اما هو رئيس
هذه العصاة من الداسسين ؟

— نعم هو رأس الدسيمة التي اديرها لانني اردت ان اتولى
امور جميع تلك المصائب لا تكون على بصيرة مما افعل . وقسمت
الحزب الملكي الى قسمين وادرك الكونت دي ليل قصدي فهو
الآن ألد عدو للشباب اليتيم

— و لكنني أريد البراهين القاطعة التي تمكنني من القبض على أعدائي فهل تستطيع ان تأتيني بها ؟

— ليس الامر صعباً وسيأتي الكلام عنه فيما يجيء أما الآن فاعود الى امر هذا الشاب ياور الجنرال ديساي فانه مخيف ويخشى منه . تقول انك لم تغلج في البحث عنه ولكن ابجائك هذه جرت في عهد المسيور رينيه اذ سلمني نفوذي ومكانتي لديك . فلو انني كنت وزيراً للبوليس يومئذ لأنبأتك ان الشاب الذي تطلبه ولا تهتدي اليه مقيم هنا في باريس نفسها

— أصحيح ما تقول ؟ هذا الذي يزعم انه لويس السابع عشر مقيم هنا

— انه مقيم حتى الآن في باريس وهو فيها منذ اربع سنوات أي منذ جعلتم المسيور رينيه وزيراً للبوليس — ورينيه لم يطلعني على شيء من هذا . ولم يعلم بوجود هذا الرجل مع ما في وجوده من الخطر ؟

— ان رينيه يا حضرة الجنرال لا يعترف بوجود جمعيات سرية في فرنسا ويزعم ان جميع الاشقياء الذين حاولوا مراراً الاعتداء عليك انما جاءوا من الخارج فهو بالطبع لا يعرف رؤساء تلك الجمعيات فاطلق لهم الحرية . أما انا فأنني اعرفهم وأقسم بشرفي ان الذي يعرف باسم ابن شقيقة كليبر مقيم هنا في باريس . جاءني حال وصوله اليها فدفعت اليه الاوراق التي أرسلها الي الجنرال ديساي فوثق الشاب بي . ثم اكتسبت ثقته ومحبته لما حادثته عن والديه فاعترف لي انه لويس السابع عشر وسألني ان امده برأي ومعاونتي

فوعده بذلك واظهرت له ميلاً وعطفاً ونصحت له اولاً ان يعيش متنكراً باسم مستعار وتسهيلاً لذلك اعطيته الاسم الذى يتنكر به وهيات له جميع الاوراق الرسمية اللازمة وفيها ورقة ولادته وتنصيره وزواج والديه ووصية اقاربه فقال بونابرت بدهشة :

— وجميع هذه الاوراق مزورة!

— فى كل مكان من فرنسا يوجد بعض الموظفين الذين يرتاحون الى المال . ولم اكتف بهيئة الاوراق التى تجعله رجلاً معتبراً من عائلة كريمة بل زدت على ذلك ورقة رسمية تبين موت الميسو لويس المذكور وانباته ان سلامته تقتضى ان يكون من الاموات فصادق على رأىي ولذلك حصلت على ورقة من المستشفى العسكرى كاملة الامضاء والختم ما كلفها ان الكولونيل لويس ياور الجنرال ديساى مات فيها متأثراً من جراحه فقال بونابرت :

— يا لله . وهل يباع ويشترى كل شيء حتى الموت والحياة — نعم يا حضرة الجنرال كل شيء . الاخلاص والحب والحياة والموت . اننى جعلت ابن ملك فرنسا ميتاً ثم احييته وكل ذلك بقوة المال . ولكن لما وصلتني تذكرة بعثه من الموت كان قد طرأ تغيير على مركزى . فصلت من وزارة البوليس وخلفني فيها الميسور رينيه . فحفظت التذكرة لدي على اننى رأيت ان لا سلامة للشباب اذا مات فكتبت اليه اننى حصلت على الاوراق وانه يعيش اميناً في باريس باسمه الجديد الذى يتنكر به . ووضعت على

هذا التحرير اسمي الكامل وختمي حتى اذا اقتضى الأمر استطاع ان يستعين به على اثبات شخصيته ولو بعد وفاتي
فضحك بونابرت وقال :

— حقاً أنك خبيث يا فوشه والفرار من قبلة مدفع اسهل من الفرار من حبالك . ويحق أن تقول لك ما قالت ملك بروسيا « اللهم انقذني من أصدقائي أما أعدائي فاني أستطيع النجاة من شرهم » فقد اتضح من برهانك أنك جعلت الكولونيل لويس يموت ثم بعثته من قبره باسم آخر

— نعم يا حضرة القائد . ان الكولونيل لويس أو بالحري لويس السابع عشر ملك فرنسا الحقيقي هو آلة في يدي وبها أضع حدا مانعاً لجميع الاحزاب وفي وسعي أن أستعمله أو لا أستعمله حسب ارادتي . أما الآن فالذي أنويه ليس فقط ادخل الشقاق والكراهة الى الحزب الملكي بل ايضاً ان أستميل عدداً كبيراً من الجمهوريين الى الأخذ بناصر هذا الأمير الشاب المنكود الحظ

— وبعد ذلك تستعمل هذه الوسيلة لتخويف وارهاب الحزب الرابع . أي الحزب البونابرتي . ولكنك أخطأت يا فوشه . انك تجاوزت الحد في حيلتك انت لا ترهيني واذا اتفق أن الامة الفرنسية عرضت عليّ تاج الملك واتفق انني قبلت ما تعرضه الامة عليّ فاني اذ ذاك أدوس بتقديم رقاب جميع البصاة والمدعين وأسحقهم دفعة واحدة . فلا أريد شيئاً من الاحزاب والفرق السياسية . بل أريد أن ألاشيها فلا تكون في فرنسا جمعيات سرية ومن هذه الساعة استعمل شدة القانون ضد ماري اتوانث

كل ساع دساس مها تكن رتبته . لا تنس هذا يا فوشه . فاني
أنوي ملاشاة جميع الاحزاب . ففتى دفعت الزعماء الى يدي لاعاقبهم
على خياتهم لفرنسا وليس لانتقم منهم فاني لا أحفل بامثالهم .
متى سهلت لي ملاشاتهم دفعة واحدة اذ ذاك أجعلك رئيساً
للبوليس واذ ذاك يجعلك الامبراطور المقبل دوقاً . . .

— سأثق بوعدك أيها الجنرال ولا ريب عندي في أنني سأكون
رئيساً للبوليس وأميراً من أمراء الامبراطورية . سنلاشي جميع
الاحزاب والدسائس

— ونلاشي أيضاً المسيو لويس . فهو شخص لا أرضى عنه
ولا أحتمله . وما دام حياً يبقى في ثوب الامبراطورية حشرة مؤذية
ولا يجب على المرء أن يبقى في ثوبه الحشرات ولا بد من ملاشاة
المسيو لويس هذا . وأرجو أن يكون قد توغل في الدسياسة فلا
يستطيع النجاة

— لقد قلت لك فيما مضى ان أنصاره حيوه اول أمس في
الاجتماع السري تحية الملك ولا أنكر ان هذا الفتى المسكين عارضهم
معارضة شديدة وأبى قبول تلك التحية وذلك التكريم

— وسيماقب على ذلك اذ لا بد من ان توجد عبرة للآخرين
فليكن لويس هذا عبرة لمن يعتبر وضحية عن الآخرين . انه زعيم
عصاة ويجب سجنه فاذا قطعت الرأس تلاشت الاعضاء من
نفسها ثم لا يبكي عليه الا الذين تغرهم خرافات العجائز وأحاديث
النساء فلا يأسف على موته احد ولكنه يكون عبرة لسواه .
فوجه اهتمامك الى هذا الامريا فوشه وحرك جميع العوامل الجهنمية

والدسائس القوية التي لديك فنضع حداً لهذه الدسيسة
— لك ما تريد أيها القائد ولكن ينقصنا شيء واحد لاتمام
الامر على ما نشاء وهو ان اكون انا رئيساً للبوليس فأكون
مالكاً للسلطة التي تحرك تلك العوامل الناجمة
— لقد افهمتك فيما تقدم انني اجعلك وزيراً للبوليس متى
قدمت لي الأدلة القاطعة على ان هذه الدسائس حقيقية لا من
مخترعات تصوراتك

— الآن وقد اتفقنا فاني لا تأخر عن تقديم البراهين المطلوبة.
قلت لك قبلا ان الحزب الجمهوري والحزب الملكي اتفقا على قتلك
وأز يدك الآن انهم اختاروا ٥٠ رجلاً بالقرعة في بلدان أجنبية
ليحضروا الى باريس ويفتكوا بك . وقد وصل هؤلاء جميعهم
الى باريس وأمس اجتمع زعيمهم بزعماء الدسائس هنا
فقال بونابرت بلمهجة الوعيد :

— تأمل يا فوشه فيما تقول . انك تعرض رأسك للسقوط .
واذا علمت ان هؤلاء الرجال من تخيلاتك وأوهامك فانك
تكفر عن خداعك بحياتك

— لقد وصل هؤلاء الرجال الى باريس أول أمس . جاءوها
من طرق مختلفة كأنهم من عامة السياح . وأمس اجتمعوا لأول
مرة مع زعيم الحزب الجمهوري

— ومن هو هذا الزعيم ؟ اذكر اسمه أو تكون كاذباً محتالاً
— هو الجنرال مورو

فصاح بونابرت صيحة مخيفة وامتنع لون وجهه وظهرت عليه

مظاهر الغضب حتى خافه فوشه فقال بونابرت :

— مورو؟ وهل يكون مورو خائناً؟ وشريكا للقتلة الذين
ارسلهم الحزب الملكي لقتلي؟ انا اعلم انه كان عدوي ولكنني لم
اعلم ان عداءه يجعله مجرمًا

و بعد ان تمشى قليلا وقف امام فوشه وقال بحدة :

— ألا تزال مصرا على القول ان مورو من زعماء الدسائسين؟

— نعم ايها الجنرال

— وهؤلاء الرجال الذين ارسلهم الحزب الملكي يقيمون الآن

في باريس؟

— نعم . ويرأسهم جورج وبيشجرو

فرفع بونابرت يده مهدداً وقال :

— اقسم بالله ان اشنقك اذا كانت افادتك كاذبة

— وانا اقسم بالله انني صادق فقد جئتكم اليوم لأريك مقدرتي

بالنسبة الى ضعف رينييه . وانتظرت ريثما تمت جميع هذه الدسائس

وقد حان الوقت للافصاح عن الحقائق فاقول صراحة يجب ان

تعمل لأن الخطر عظيم

وكان بونابرت قد استلقى على كرسيه وهو يرتجف . وجرياً على

عادته في ساعات الانتقال تناول المطوى وأخذ ينقر على مكتبه

واذا بالباب قد فتح ودخل الحاجب فقال :

— ان المستشار ريال حضر ثانية وهو يلح في طلب مقابلتكم

فنادى بونابرت المستشار ريال بصوت عال فدخل هذا وهو

مضطرب فقال القنصل :

— ما وراءك يا ريال ؟ هل حدثت الرجل المحكوم عليه ؟

— نعم يا حضرة القائد

— هل صدق ظني ان المدعو الدكتور كويرول انما زعم ان لديه ما يبوح به من الاسرار التماساً لأطالة حياته برهة قصيرة ؟
وانه دس السم لزوجته رغبة في التزوج من عشيقته
فقال فوشه :

— انا أعرف كويرول واعلم ايضاً ان زوجته هي التي تناولت السم من تلقاء نفسها فهو غير مجرم
— وما هو اذاً يا حضرة النبي العالم بكل شيء ؟
— هو احد ذوي الدسائس
فتحول بونابرت الى ريال وقال :

— ما الذي علمته انت ؟ وماذا قال لك الرجل ؟

— اقسم لي انه برىء من تسميم زوجته ولكنه اعترف انه احد اعضاء جمعية سرية غرضها الفتك بالجنرال بونابرت ويؤكد حصول الاتحاد بين الحزبين الملكي والجمهوري وان ٥٠ رسولا من قبل الكونت دي ليل ودوق دانجين برئاسة جورج وبيشجرو قد انسلوا الى باريس وانهم قابلوا امس الجنرال مورو والرجل الذي يدعي انه لويس السابع عشر المختبىء في باريس وان هؤلاء الرجال يطوفون الآن شوارع العاصمة يراقبون التويلري ويتربصون الفرص لقتل القنصل الاول

فحول بونابرت نظره من ريال الى فوشه وكان هذا يكتفم علامات الفوز والسرور بصدق اقواله ثم مشى الى الباب المؤدي

الى غرفة الانتظار فدفعه بقدمه وصاح بصوت خفيف :
— يا مورات !

وللحال اقبل الجنرال مورات وهو يومئذ محافظ باريس فقال
بونابرت بلمهجة القائد الذى يصدر الاوامر في ساحة القتال :
— اصدر الاوامر في الحال يا مورات ان تقفل جميع لمبواب
باريس وان لا يسمح لأجنبي بالخروج منها الى ان تصدر اليك
اوامر جديدة . ثم عد اليّ بعد ساعة لأعطيك منشوراً تذيله
بتوقيعك وتطبعه وتعلقه على شوارع المدينة . افعل كل هذا واذهب
ثم نادى ياوره الاول دوروك وقال له :

— خذ ١٢ جندياً وابحثوا عن الجنرال مورو واقبضوا عليه
حيثما تجدونه

فذعر دوروك واضطرب وقال له :

— ايها الجنرال ارجو . . .

فصاح به بونابرت :

— لا تعترض . وعليك فقط ان تصدع بالاوامر

فلما مضى تحول بونابرت الى ريال وقال له :

— عد الى السجن وخذ للمحكوم عليه الامر بالعفو عنه

واحضره اليّ هنا لأسمع اقواله بنفسه

وبقي بونابرت وفوشه وحدهما . فقال القنصل :

— لقد توفرت البراهين يا فوشه والآن صدقت اقوالك . متى

اردنا ان نصطاد الذئاب فانت خير صياد . فلنبداً من الآن .

ومن هذه الساعة اجعلك رئيساً للبوليس السري . وأول ما يجب

عليك اتمامه بعد تولي الرئاسة ان تختم هذه الحادثة وتساعديني على تمزيق هذه الاحبولة القتالة ويكون جزاؤك أن تعين وزيراً للبوليس (١) ومتى انجزت ما تعهدت به أفى انا بوعدي — انك الآن قد قبضت على الجنرال مورو . وأعدك بشرفي

ان اقبض بعد ساعات قليلة على بيشيجرو وجورج — ولكنك نسيت الشخص الرئيسي والأهم . نسيت خيال الملكية المائتة . المدعو لويس السابع عشر . مهلاً . . . لا بد لي من هذا الرجل . أريد ان اجرد هذا الثعبان المللي من انيابه السامة فاحضره اليّ . ان آلهة الجمهورية نائمة تطلب ذبيحة ملكية ليسكن غضبها . ادفع هذا الدعي الى يدي أو تكون العاقبة وخيمة . اذهب الآن ونصيحتي لك ان لا تدع الشمس تغرب حتى تاتيني بخبر مآله ان قد قبض على هذا الملك الموهوم او تغرب شمس سعادتك . اذهب واخرج من طريق الدهليز الصغير فالباب السري الذي لا تحبّله . اذهب

فلم يجراً فوشه على معارضة هذا الامر الصريح وتحول برشاقة الى الستارة المؤدية الى الغرفة الداخلية ومنها الى باب لا يعرف كيف يفتحه الا الذين اطلعوا على سره وهو يؤدي الى السرداب الصغير

ولكن ما كاد فوشه يصل الى الغرفة المذكورة حتى شعر بيد قد وضعت على ذراعه وسمع صوت امرأة تقول همساً — يجب أن أحادثك الآن تعال من هنا . وجرتك تلك اليد الى

الجدار واذا بباب سري قد فتح وسمع الصوت النسائي يقول :
— ٤ درجات . انتبه

الفصل الثاني والثلاثون

جوزفين

لم يتردد فوشه بل تبع دليله الى السلم المظلم لأنه عرف صوت
المرأة وأدرك انها جوزفين زوجة القنصل الاول

ولما انتهيا من السلم المظلمة وصلا الى غرفة مظلمة كالتي
عند باب مقصورة القنصل ومنها خرجا الى مقصورة جوزفين
فقالته بلهجة المتوسل :

— ارجو انك لا تذكر هذه الطريق السرية لبونابرت فانه
يجهلها وقد أمرت بصنعها اذ كان في بولون في العام الماضي فهل
تقسم ان تحفظ سري هذا

— نعم يا سيدتي

— ويعلم الله انني لم اوجد هذه الطريق السرية عبثاً ولكن
يجب احياناً ان اقف على ما هو جار حتى اذا علمت ان الجنرال
غاضب متأثر اسرع فاحول غضبه وأمنع الاذى . ومنذ فتحت
هذه الطريق قد منعت كثيراً من النكبات اذ سمعت ما دار من
الحديث بين بونابرت وآخرين . وها انا اليوم قد سمعت اموراً
مدهشة محزنة . ولا ريب عندي ان الله تعالى دفعني برحمته الى

الاصحاء لما دار بينك وبين بونابرت . وقد كنت معه لما أبلغوه خبر قدومك لمقابلته فاجست خيفة من مجيئك وقد سمعت كل كلمة واعلم ان حياة زوجي في خطر وان ٥٠ خنجراً تهدده . لعمري ان هذا الحزب الدائم على سلامته يؤدي الى موتي فاني قلقة مضطربة دائماً . وقد تلاشت سعادتنا منذ هجرنا منزلنا الصغير لنقيم في التويلري . فلماذا فعلنا ذلك ؟ لماذا تحولنا عن منزلنا الصغير في لوكسمبرج ؟ ولماذا اغرونا على الإقامة في قصر الملوك ؟

— لأنه يجدر بأعظم رجل في فرنسا ان يقيم حيث اقام ملوكها — نعم . نعم . انا اعلم هذه الألاعيب الكلامية والحيل اللغظية التي اثرت بها في عقل بونابرت واغريته بالاطراء . انك ستحمل عقوبة ما قد يحل بنا من النكبات . لقد ملأت رأسه بمسكرات المدح والاطراء وانت تدس في دمه صباح مساء ذلك السم الحلو المذاق الذي من شأنه ان يقتل سعادتنا ويلاشي معيشتنا الهادئة . لقد كان بونابرت لطيفاً بشوش الوجه سعيداً وكان قانعاً بالاكليل التي توجت رأسه بها انتصاراته وفتوحاته ولكنك لبثت تهمس في اذنه ان التاج يزيد تلك الاكليل بهاءً ومجداً . فايقظت باقوالك ما كان كامناً في اعماق قلبه وما كنت اسكته بقبلائي ويدي واذا بك تثير انايته وتفسد علي عملي . حقاً يا فوشه انك شرير قاس ولا رحمة عندك ولا حنان . اكرهكم جميعاً لأنكم تقتلون حبيبي بونابرت

وكانت جوزفين تتكلم بصوت منخفض وانفاس تتردد والدموع تبلل وجهها الجميل وجسمها يرتجف لشدة انفعالها ثم

ما لبثت ان جلست على ديوان هناك وستررت وجهها بيديها وقد لمعت في اصابعها الخواتم الثمينة فاجابها فوشه :

— انك لا تنصفين يا سيدتي . واذا كنت قد سمعت حديثي مع القنصل الاول فلا يخفى عليك أن الغرض الاساسي لزيارتي انما كان السعي وراء انقاذه من الذين يحاولون قتله والاهتمام بما يضمن سلامته

— وفي الوقت نفسه كان الغرض من زيارتك ان تلقي في سمعه امر التاج الامبراطوري . انا اعلم ذلك . وقد روجت فكرتك هذه من خلال الكلام عن التمثلة والخناجر . تريد ان يكون امبراطوراً لتصير اميراً أو دوقاً . انني ارى وادرك كل ذلك ولا استطيع منعه لأنه اصبح لا يصني لي ولا يحفل بتوسلات صديقه الصداقة جوزفين . وأصبح كثير الاهتمام بالمادحين الغشاشين ثم لا يلبث ان يضع على رأسه تاجاً فيكمل تعاستنا . نعم . نعم ان هذا التاج الامبراطوري سيؤدي بنا الى الدمار والاستوط . فقد قيل لي وانا شابة انني سأصير امبراطورة وأن امبراطوريتي لا يطول زمانها . ومع ذلك فاني اريد أن اعيش وان اكون سعيدة فقال فوشه باسماء

— سيكون لك ما تريدين يا سيدتي . فان لبس التاج الامبراطوري حسن . وراسك الجميل جدير به فصاحت به غاضبة :

— لا . لا . دع عنك اغرائي . يكفيني أن أكون زوجة محبوبة وسعيدة . ولا اريد تاجاً . ان الرؤوس المتوجة التي

اقامت في التويلري كان نصيبها الهلاك والآلء تيجانهم تحولت الى دموع . ولكن ماذا ينفع ان اقول لك . كل هذا يذهب سدى . على انني ما دعوتك الآن لمثل هذا الحديث بل لغرض آخر مختلف عنه كثيراً . ارعني سمعك يافوشه . أنا لا أستطيع ان أمنع بونابرت عن ان يصير امبراطوراً ولكنني لا أسمح لك ان تجعله قاتلاً مجرمًا ولا أطيق ذلك وأقسم بالله والقديسين انك لا تفعل — انا لا أفهم ما تقولين ياسيديتي . ولا الى أي غرض تشيرين — بل تفهم كل شيء وتعلم انني اشير الى الملك لويس السابع عشر — تريدن الاشارة الى المدعي الغشاش الذي يزعم انه يتيم « التامبل »

— بل هو هو بذاته يافوشه . انا أعلم بذلك علم اليقين وادري تاريخ فراره من سجنه . فقد كنت يومئذ سجيناً مع طولان صديق الملكة الأمين ولما كان يعلم اخلاصي لما ري انتوانيت التاعسة اطلعني على سره وكيف فرولي العهد من سجنه . ثم لما أطلق سراحني علمت من (تاليان) و (باراس) ما يؤيد رواية (طولان) وأخبراني ان النلام مقيم في مكان خفي بمساعدة البرنسي كوندى . كل هذا عرفته سابقاً وعرفت ايضاً من هو ياور الجنرال كليبر . وقد سألت عنه بعد واقعة مارينجوا ولما أخبرني الرسل ان الملك الشاب قد مات بكيته ولبست السواد عليه وصليت لأجله . والآن وقد علمت ان ابن ملكتي الجميلة لا يزال حياً هل أسمح بموته ميتة خائن ؟ لا . لا . هذا لا يكون . أقول لك يافوشه انني لا أسمح بذلك ولا احتمله ولا أصبر عليه . ولا أسمح ان يذهب الشاب

التأعس فريسة . يجب ان تنقذه وهو ما أطلبه منك بل ماأريده ايضا
فقال فوشه بدهشة :

— أنا ؟ ذلك مستحيل يا سيدتي كما لا تجهلين . لانك سمعت
حديثي مع القنصل . وقد قال بصراحة : « ان الجمهورية تطلب
فريسة ملكية » فان لم تكن تلك الفريسة المدعو الملك لويس فلتكن
دوق داجين اذ لا بد من فريسة لارهاب الملكيين واعادة الراحة
الى نصابها

— ولكنني لا أسمح لك ان تستفيد من الذبائح البشرية .
والجمهورية لا تكون صنماً حديدياً نارياً يلتهم الناس كما كانت في
عهد الغيلوتين . يجب عليك ان تنقذ ابن الملكة مارى انوانيت ولا
بد أن تفعل . واريدها ان اعيش بضمير مرتاح فأكون في مستقبل
حياتي أسعد مني الآن

— ان الذى تطلبينه مستحيل يا سيدتي وقد سمعت بأذنيك
ما قاله القنصل لي ان شمس سعادتني تغيب اذا لم اضع في السجن
قبل غروب شمس هذا النهار الشاب لويس

— وانا قلت لك يا فوشه انك اذا فعلت ذلك - اذا صرت
قاتلاً سفاحاً مرة أخرى - اكون عدوة لك مدى حياتك .
وانتقم في شخصك لموت الملكة وابنها واقتني خطواتك بحقدي
وبغضي . ويتبعك انتقامي كالظل . فلا يهدأ لي بال الا بعد ان
اسقطك الى الحضيض . وانت تعلم ان بونارت يحبني وان نفوذى
عليه عظيم وان ما اریده ادركه في آخر الأمر بتوسلاتي ودموعي
ودلاي . فلا تحرجنى يا فوشه . ولا تجعلني خصمك الى الأبد

انقذ ابن الملك الذى ساعدت على قتله واسترض روح الوالدين بمساعدة الابن . واذكر يا فوشه اننا الآن في مة صورة الملكة . طالما اقامت فيها وضمت الى صدرها ولدها وسألت الله ان يباركه . نعم يا فوشه ان روح مارى انتوانيت معنا الآن . وهي تعلم اذا انت حفظت حياة ولدها . ان مارى انتوانيت تشكوك عند عرش الله وتسأله تعالى ان لا يرحمك اذا انت لم ترحم ولدها . فبأسم الملكة يا فوشه . وفيما انا جاثية أمامك أتوسل اليك ان تنقذ ولدها

وجثت جوزفين امام فوشه ودموعها تجري على وجنتيها واخذت تتوسل اليه فتأثر كثيراً من التذكرات التي ايقظتها جوزفين باقوالها فانحنى يريد انهاضها فأبّت وكانت تبكي وتتوعد وتتوسل الى ان رقبته قلبه وتأثر اوله له اراد ان يستبقي لنفسه رضى زوجة الامبراطور العتيد فقال :

— انهضي يا سيدتي . أي انسان يستطيع مقاومة ارادتك طالما ان بونابرت نفسه لا يستطيع ذلك . سأنقذ الشاب كيف كانت العواقب

فنهضت كالغزال واستولى عليها السرور فطوقت عنق فوشه بذراعيها الجميلتين ورسمت على وجهه قبلة وقالت :

— يا فوشه انني اعطيك هذه القبلة باسم الملكة مارى انتوانيت . انها قبلة الرضى والغفران والبركة . انت تقسم ان تنقذه ؟

— اقسم ان افعل يا سيدتي

— وانا اقسم ايضاً انني حلما يتم انقاذه وتضمن سلامته ويتلاشى غضب بونابرت اعترف لزوجي بما جرى واصور له الحادثة في

شكل يحمله على الرضى بل يدفعه الى الشئ عليك . والآن فكيف تنوى ان تنقذه ؟

— لا استطيع ان انقذه الا بمساعدتك

— انا رهينة اشارتك فماذا تريد ؟

— يجب ان تكتبي الى لويس رسالة بخط يدك وتستحلفيه باسم والدته ان يهرب لينجو من غضب القنصل الاول وان يهجر اوربا

— يا لك من داهية يا فوشه . انت تريد ان يكون لديك شاهد من خط يدي تستفيد منه لدى بونابرت في ساعة الحاجة وعند الاضطرار . لا بأس سأكتب اليه ما تريد وأسرع الى مكتبها فكتبت الرسالة ودفعتها الى فوشه قائلة :

— اقرأ . ففي رسالتي ما يلزم . أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدي . وقد جعلت رسالتك رقيقة مؤثرة فلا يلبث لويس ان يتأثر ويعمل برأيك

ثم طوت الرسالة ووضعتها في ظرف وقالت :

— وكيف اكتب العنوان ؟

— باسم الملك لويس السابع عشر

فكتبت العنوان المذكور ودفعت الرسالة الى فوشه قائلة :

— خذها . انها حجتك في ساعة الحاجة . ولزيادة طمأننتك

أرجوك أن تحفظ رسالتي هذه لديك فلا توصلها الى لويس لأنني

افضل ان ابلغه ما أريد أن أقوله شفاهاً

— كيف ذلك ؟ أتريد أن ...

— أريد ان اخاطب الملك . وأن التمس منه العفو عني وعن
بونابرت . كفى لا تعارضني . فقد قررت ان اقامة بنفسي .
أريد أن أراه

— ولكنه لا يستطيع المجيء الى هنا . لا يمكن ان يدخل الى
عربن الاسد

— لا ليس هنا . ولكنني أذهب اليه
— أنت هائلة ياسيدي وهذا مستحيل . انت زوجة القنصل
الأول تذهبين . .

— أريد ان أقوم بواجب اخلاص وشكر . فاني لا أزال
اشعر في قلبي انني من رعايا الملكة . دعني افعل ما أريد . ارعني
سمعك . هذه عربتي أمام الباب . وكنت أنوي الذهاب لزيارة مدام
تاليان وأما الآن فقد عدلت عن تلك الزيارة . واريد ان استبدلها
بنفسحة حتى اذا وصلت الى غابة بولونيا استوقف العربّة وأصرفها
وأعود على قدمي . اما انت فتتظرنني هناك في عربّة عادية .
وتأخذني الى الملك

— لك ماتريدين . سأصعد بأمرك ياسيدي . وانما ارجوك
التعجيل فعلي واجبات كثيرة اليوم . وسأغتم الفرصة حتى مقابلتك
لأستحصل للشاب تذاكر السفر اللازمة . ولكن يجب ان تساعدني
للخروج من المدينة اذ لا تجهلين ان جميع ابوابها مقفلة بأمر
القنصل الأول

— سأقول لبونابرت انني وقد اقفلت أبواب المدينة صرت

اكره الاقامة فيها ولذلك سأركب عربتي للنزهة في (سان كلو)
واذ ذاك يركب لويس عربة اخرى ويتبعني . واذا ابدى الحرس
معارضة اصدر اليه امرى ان لا يفعل . والان سر بنا كل الى عمله

* * *

بعد مضي ساعة على ما تقدم صرفت جوزفين عربتها وموكبها
وعادت فركبت عربة اجرة كانت تنتظرها عند الفسقية في غابة
بولونيا واستقبلها فوشه هناك معتذراً عن سوء حال العربة التي اعدّها
لزوجة القنصل الأول

اما جوزفين فانها تبسمت وقالت :

— لقد مرت بي ايام كنت اسر وافتخر بالركوب في مثل هذه
الركبة . ايام اضطرت الى المشي على قدمي في شوارع باريس على
كثرة الوجود فيها يومئذ . لا بأس . العربة موافقة فان الايام
الحاضرة بنعيمها لم تحملي على الزهو والكبرياء لانني اذكر ايامي
الماضية ولا انسها . والان فالى اين نذهب واين يقيم الملك الشاب
— انك سائرة بعد امرك الى منزلي حيث ينتظر الشاب لانه
ليس بعد الآن اميناً على سلامته في منزله لانني جعلت افراد
البوليس السري يحدقون بالمكان الذي يقيم فيه ولديهم الاوامر
الصريحة ان يقبضوا عليه حال رجوعه . ومعلوم انه لا يعود الى
ذلك المنزل ويسهل عليّ ان ادعي انه علم بالخطر الذي يهدده
فاركن الى الفرار . وهانحن قد وصلنا فاذا انزلت النقاب على
وجهك لا يعرف الناس ان اجمل سيدة في باريس قد شرفت
منزلي بزيارتها

فلم تجب جوزفين على هذا الاطراء ولكنها انزلت نقابها
واسرعت فدخلت منزل فوشه

وفيا هي على السلم همست في أذن فوشه قائلة :

— انني اشعر بخفان قلبي الآن كما شعرت بخفقا نه يوم ذهبت
الى التويلري لا تشرف بمثابلة الملكة ماري انتوانيت . وهي اول
مرة خاطبت فيها ملكة فرنسا

— والآن يا سيدني تخاطبين ملك فرنسا

— وهل يعلم من انا ؟

— لا يا سيدتي فقد تركت الامر لك وها قد وصلنا الى القاعة
وهو فيها

— مهلا يا فوشه . دعني اقف قليلا لاستجمع قواي لأن قلبي
يخفق . مهلا . والآن افتح الباب

ودخلا القاعة الكبرى فوقفت جوزفين عند الباب وبيها هي
تنزع قبعاتها بسرعة وترفع نقابها وتدفعها الى فوشه حوات بصرها
الى الشاب الواقف عند النافذة وهو مكتوف اليدين فرأت في
وقوفه وحاله وسكوته وزرقة عينيه اعظم شبه للصورة التي تمثل
لويس السادس عشر في صباه فلم تتمالك ان صاحت صيحة الدهشة
والاستغراب واسرعت اليه فاقترب هو اليها وانحنى امام هذه
السيدة الجميلة وقال :

— سيدتي : لا ريب انك السيدة التي سألني المسيو فوشه ان
انتظرها هنا

فاجابت بصوت مرتجف والدموع تجري من عينيها لدى
تذكارات الماضي :

— نعم أنا هي . لقد جئت لأراك ولآتيك بتحيات الرجل
الذي احببته واكرمك ومات وهو يدعو لك
فامتقع لون الشاب وقال :

— من تعنين يا سيدي

— لقد دعاه الناس باسم « طولان » وأما الملكة ماري انتوانيت
فانها دعتة « الأمين »

فقال لويس بلمهجة الحزين :

— اذاً لقد مات الأمين ؟ مات منقذي الذي تمكن بامانته
وشجاعته من انقاذي من سجنى الخيف ؟ آه يا سيدي انك تعيدني
الى خاطري تذكارات مؤلمة

فتحولت جوزفين الى فوشة ونظرت اليه كأنها تقول « رأيت
انه امين وليس خائناً ولا دعياً ؟ »

ثم تحولت الى الشاب وقالت :

— أما عرفت قبل الآن بموت طولان ؟

— وكيف يمكن ان اعلم بموته . فقد نقلوني يومئذ الى قلعة منفردة
حيث بقيت سنوات ثم ذهبت الى جرمانيا ومن ذلك الحين ما
برحت مقبياً في البلدان الاجنبية ومنذ عودتي الى باريس حاولت
ان اعلم شيئاً عنه فلم اجد الى ذلك سبيلاً . فكنت اعلل النفس
بالآمال واحسب انه ذهب الى اميركا لأنه كان ينوي السفر اليها كما

روى لي يومئذ الرجل الآخر الذي ساعد في انقاذي من اسري
فقال جوزفين :

— لقد كان الرجل الآخر الذي تشير اليه البارون دي جارجيز
وكان الغلام الذي وضع في محلك في السجن . . .

— كان ابن الكونت دي فرونيه

فصاحت جوزفين بفوشه

— انه هو يا فوشه . لا ريب في ذلك الان . انه ابن ملائكتي

الشريفة التاعسة ماري انتوانيت

ثم تحولت الى لويس وقالت :

— آه يا مولاي . دعني اعبر عن اكراميك كما يليق بالعبد وهو

في حضرة مولاه الملك . مولاي . انني اجثو امامك باحترام ولا
اتأخر من سفك حياتي في دموعي و بكل دمعة منها التمس منك
العفو عن فرنسا والمغفرة لنا جميعاً

وفعلت اجثت امامه ورفعت بصرها من خلال دموعها الى
الشاب الواقف امامها وقد تولته الحيرة والدهشة ثم ما لبث ان
أسرع وحاول أن ينهضها فقالت :

— لا يا مولاي . لا انهض من مكاني الا بعد ان تغفر لي
ولنا جميعاً

— وكيف اغفر لك وعن أى ذنب ؟ وتحول الى فوشه فقال :

— يا مسيو فوشه : من هي هذه السيدة التي تعرفني وتعرف

تاريخي وتأتيني بالاخبار عن الامين ؟ وعن أى ذنب هي تستغفر؟
ومن هي ؟ صرح باسمها

فاقترب فوشه وقال :

— ايها السيد انها . . .

فقاطعته جوزفين قائلة :

— لا تفعل يا فوشه . سأخبره انا عن نفسي

وتحولت الى لويس فقالت :

— مولاي . لما كانت والدتك الجميلة الجميلة مقيمة في فرسايل

تشرفت بمقابلتها في الحفلات الكبرى والصغرى . ففي غضون حكم الرعب إذ كانت الملكة قد هجرت فرسايل والترينون واقامت في التويلرى ذهبت ذات يوم لأتشرف بمقابلتها . . .

فقال لويس:— يظهر من هذا ايها السيدة انك كنت مخلصه وشجاعة إذ لم يجسر يومئذ على الذهاب الى التويلرى الا الأمناء والشجعان . تسلمي . سيري في حديثك . قلت انك ذهبت لمقابلة الملكة ولا شك انها قابلتك واخذوك الى الصالون الصغير الأصغر

لا يا مولاي لم تكن الملكة هناك بل كانت في مقصورة الموسيقى ولما كانت الأصول غير مرعية بتدقيق يومئذ سمحوا لي بمرافقة ماركيزة طورزيل الى مقصورة الموسيقى . فلم تشعر الملكة بدخولنا لأنها كانت تغني . اما انا فلمبتث واقفة عند الباب اتأمل الصورة التي تجلت امامي . رأيت الملكة في ثوب ابيض بسيط وقد سترت شعرها الجميل وعلميه قليل من البودرة بـتبعه صغيرة سوداء مطرزة وجلست بجانبها اخت ولي العهد عاكفة على التطريز وبالقرب منها على كرسي صغير جلس غلام في الخامسة من عمره

جماله بارع وشعره الذهبي مسترسل وهو كالملك . وقد اعتمد يديه
على ساعدى الكرسي محققاً بالملكة لا يتحول عن النظر اليها
والانشغال بالعطف على والدته . وكانت الملكة تعني ولا يزال
صدى صوتها يرن في قلبي . كانت تعني الدور الاتي :

Dors, mon enfants, clos ta paupière,
Tes cris me déchirent le cœur :
Dors, mon enfant, ta pauvre mère.
A bien assez de sa dol douleur. (٧)

وبينما هي تعني حولت رأسها الى ولدها الذى كان يصني
لصوت والدته فقالت اخته : « اظن لويس شارل قد نام » فانتبه
الصبي وصبغ الاحمرار وجهه وقال :

— لا يا ترزا . كيف يقدر الانسان ان ينام بينما والدتي الملكة تعني
فانحنى الملكة اليه وقبلته في جبهته قبلة طويلة وسقطت دمعة
من عينها على شعره الذهبي . وقد رأيت تلك الدمعة فترقرق الدمع
في عيني ولم أملك الامتناع عن البكاء فخرجت من المقصورة
لأنشف دموعي واسكن روعي . مولاي انني أراك الآن أمامي
كما رأيته يومئذ وأرى الملكة الحسنة وأولادها من حولها . وحالي
الآن حالي في ذلك الزمان — لا أملك الامتناع عن البكاء
فستر لويس وجهه بيديه وقال بصوت خافت :

— وأنا ... يا لله وانا

وتأثر فوشه نفسه وساد السكوت طويلا . فلم يسمع الا
تمهدات الشاب وزفراته وهو يبكي بكاءً شديداً فكانت الدموع

تدفق من خلال اصابعه التي سترها وجهه . أخيراً قالت جوزفين :
— مولاي . بجرمة تذكر تلك الساعة استغفرك الآن عن
ذني لانني لقيم في المتاصير التي كانت تقبم فيها الملكة ماري
انتوانيت . وما كنت اريد الاقامة فيها . وانما فعلت مكرهة رغماً
عن حزني وتألمي . صدقني يا مولاي واغفر لي اضطراري الى
الى الاقامة في قصر الملوك

فرفع يده عن وجهه وتفرس فيها ملياً وقال :
— انت تقيمين في التويلري ؟ اذاً من تكونين ايتها السيدة
— مولاي أنا المعروفة سابقاً باسم فيكونتة بوهارنيه اما الآن
فانني

فصاح الشاب مذعوراً وقد ابتعد عنها :
— زوجة التنصل الاول ؟ . . . زوجة الرجل الذي يتأثري
وقد افادني فوشه انه يريد القضاء على حياتي ؟
— مولاي . اغفر له . ما هو بالرجل الشرير القلامي ولكن
الأحوال اضطرته الى ما يفعله . والظاهر ان الله تعالى اختاره
ليعيد بسيفه وروحه المجيدة الأمن والسعادة لهذه البلاد المنكودة
الحظ التي تنفجر الدماء من ألف جرح أصيبت بها . أنه انتقد
فرنسا فرحبت به الأمة وألقت اليه مقاليد أمورها . ان فرنسا
استعادت قوتها وعظمتها بواسطة فتوحاته وادارته الحسنة . ومع
ذلك يتهدهد الاشرار بالقتل وتحوم حوله الجمعيات السرية لتقتله
مع ان فرنسا مدينة لها بحياتها الجديدة فكيف يلام اذا حاول
بعد الصبر الطويل ان يهرب خصومه الاشرار بعمل خطير وطعنة

قاضية . أنه مصر على عزمه هذا . قد استيقظ الأسد من سكينته ودعته بدسائس جديدة وسيفني هذه المرة جميع خصومه الذين يدسون الدسائس له . مولاي انني لا أوجه اليك شيئاً من النهم . لا اقول لك مخطيء في سعيك وراء استعادة عرشك وميراث آبائك . ان الله خير حكم بينك وبين اخصامك . ولكنهم يا مولاي يملكون القوة ويجب ان نستسلم لقوتهم . فيا سيدي العزيز التاعس . أنوسل اليك ان تنجو بنفسك من الخطر الذي يهددك به القنصل الأول . ومن الذين ارسلوا في آثارك للقبض عليك . فاذا هم عثروا عليك كان الهلاك نصيبك لا محالة . وليس في العالم من يستطيع انقاذك . لذلك ارجوك ان تهرب ما دامت لديك فرصة للهرب

فصاح الشاب بحدة واستياء :

--- الهرب . الهرب . لقد كانت حياتي جميعها مؤلفة من الفرار والهرب . كما قضي عليّ ان ابقى جائلاً متنقلاً هارباً محتبئاً فلا أجد راحة في مكان ولا عناية من أى انسان لا وطن لي ولا أهل ولا اسم متجولاً كالحيوان البرى المفترس لا يقر لي قرار دائم الفرار لان كلاب الصيد تعدو في أثرى . فليكن ذلك اذا . لقد مللت مقاومة القدر ومعارضة القضاء . انني استسلم الى ما لا سبيل الى مقاومته . قد يأمر القنصل الأول بشنقي فلا اخاف الموت لانني أجد فيه الراحة التي تنكرها عليّ الحياة وتحرمني منها . انني لا أهرب وسابقي . واقتدي بوالدي فاعرف كيف استقبل الموت بأما

فقلت جوزفين : — لا تقل هذا ياسيدى اشفق عليّ وارحم نفسك . فانك لا تزال في عنقوان شبابك ولك في الحياة مستقبل ان شاء الله . وباب أمل واسع . يجب ان تعيش لا لتنتقم لوالديك الكريمين بل لتخفف من لوعة فقدما . فيا ابن الملوك وسليل الاقيال ان الله منحك الحياة عن يد والديك فلا يحق لك ان ترمي بها في المهالك بل دافع عنها لان بركة والديك تشملك وعليك ان تنقذ نفسك من التمل

وقال فوشه :

— يجب ان تعيش . لان موتك يوجب ابتهاج الذين كانوا اعداء الملكة ماري انتوانيت . فيرون ميراثك ويمزأون بضغفك . هل تسمح للكونت دى دليل ان يدعو نفسه لويس الثامن عشر وهو الذى أجرى الدموع بحاراً من عيني ماري انتوانيت ؟

فغضب الشاب لهذه التذكارات وصاح بحدة :

— لا . لا . انني لا ابيح للكونت دى ليل التمتع بهذا الابتهاج . انه لن يلقي رأسه على وسادة مطمئناً . انه سيكون ملك الغد . ان شخصي سيقلق احلامه وامكان رجوعي ومطالبي بحقي سيرعبه ويلازمه ملازمة ظله . أصبت يا سيدتي : يجب أن أعيش . ان روح ماري انتوانيت ترف حولي وتطالبني بالبقاء حياً وأن أنتقم لها من خصمها اللدود . فما رأيك يا فوشه ؟ والى أين أذهب ؟ أين يختبئ المجرم البائس الذي لا ذنب له الا أنه حي وانه ابن أبيه ؟ أين الملجأ الأمين الذي يختبئ فيه هذا الطريد من

كلاب القانصين ؟

فقالت جوزفين :

— مولاي . يجب أن تذهب الى البلدان الأجنبية فان ذراع
القنصل الأول قوية وبصره حاد يخرق أوربا بأسرها فيهتدي
إليك في كل بقعة منها
وقال فوشه :

— يجب عليك في الوقت الحاضر ان تقيم وراء البحار وقد
أعددت لك الوسائل لهذه الغاية . توجد بواخر تسافر من مرسيليا
يوميّاً وعلى واحدة منها يجب ان تذهب الى اميركا . فهي أرض
الحرية والاقدام والعمل . وتجد فيها ما يتطلبه حبك للعمل
فقال لويس بابتسامة محزنة :

— صدقت . سأذهب الى اميركا . وأجد ملجأ بين متوحشيهـا
لعلهم يعهدون اليّ رئاستهم ويزينون رأسي بتاج من الريش بدلا
من تاج الذهب . ففي بلاد الفطرة وغاباتها بين ابناء الطبيعة يجد
الشريد الطريد مقاماً ووطناً
وتحول الى جوزفين فقال :

— اشكر لك أيتها السيدة لطفك وعنايتك ويكون برهان أمتاني
استسلامي لارادتك . أنك أحببت ماري انتوانيت فليباركك الله
ويبارك جميع الذين يحبونك
وبسط كلتا يديه الى جوزفين فلما أوشكت ان ترفعها الى
شفتيها لتقبيلهما منعها عن ذلك وحنى رأسه وقال :

— أيها السيدة . باركي جبينني بقبلة من شفتيك اللتين قبلتا يد والدتي

فقبلته جوزفين ودموعها تتساقط على شعره الجميل وقالت :
— مولاي . اذهب وليباركك الله ويصونك ويحميك .
واذا كنت يوماً ما في حاجة الى المساعدة ببلغني ذلك تجد انني لا
امتنع عن خدمتك في كل شيء

بعد مضي ساعة كانت زوجة القنصل الاول تسير في عربتها
الى (سان كلو) . ولما وصلت الى زاوية شارع (سان اونوره)
انضمت اليها مركبة اخرى ورد الشاب الذي كان فيها نحمة
زوجة القنصل

حتى اذا وصلت عربتها الى باب المدينة المقفل وقفت قليلا .
إلا ان جوزفين اشارت الى الحارس ان يدنو من عربتها وانفق انه
كان يعرفها ففتح الباب لعربتها فتالت بابتسامتها الغتانة :

— ليس ضرورياً فيما اظن ان آتي من القنصل الاول بجواز
لمرورى ومرور حاشيتي . انت لا تظن انني وكاتم اسراري الراكب
في العربة الأخرى من طبقة الاشرار الذين يريدون اغتيال زوجي
فانحنى الرجل كثيراً وامر بفتح الباب

كذلك انقذ ابن الملكة ماري انتوانيت . وهجر باريس للمرة
الثانية ملتصقاً بالحياة في بلاد الغربة

الفصل الثالث والثلاثون

خاتمة الطواف

كان يوم ١٦ فبراير سنة ١٨٠٤ يوم خوف ورعب في باريس . بقيت ابواب المدينة مقفلة كل ذلك النهار وطاف الشوارع حرس عسكري وعلقت على جدران الأزقة المنشورات الرسمية التي اذاعها مورات محافظ باريس واعلن فيها للاهالي ان في مدينتهم ٥٠ رجلاً جاءوها لتمتل القنصل الاول

وفي اثناء ذلك اعترف الجراح (كبرول) باشتراكه في الدسيسة وصرح باسماء الزعماء ومن والايم على الفتنة . فلم تفتح ابواب المدينة الا بعد ان فرغت الحكومة من القبض على الخمسين جميعهم

ثم بدأوا بمحاكمة هؤلاء الذين اوفدهم آل بوربون لقتل بوناپرت . وفي جملتهم الجنرال (بيشيجرو) وجورج والجنرال (مورو) وهو اعظمهم شأنًا واعلاهم مقاماً

اما المحاكمة فقد سترت اخبارها بنقاب من السكمان والخفاء فشاع ان الجنرال (بيشيجرو) انتحر في سجنه وقال بعضهم همساً بل انهم قتلوه سرّاً في السجن

ثم جاء يوم كان اهالي باريس كأَن على رؤوسهم الطير وقد ذاعت في المدينة اشاعة ملأت القلوب رعباً

تلك الاشاعة مآلها ان الجنود الفرنسية قبضت على دوق
دائجين حفيد البرنس دي كوندى في مدينة (بادن) من وراء
الحدود وجاءوا به الى (فينسان) وهناك اتهم في الليلة نفسها انه
شريك في دسيسة لقتل القنصل الأول واتلاف الجمهورية . وأن
المجلس العسكري حكم في الحال بادانته واعدامه فاعدموه بالرصاص
صباحا في فلعة (فينسان)

وكانت الاشاعة صحيحة . انجز بونايرت وعده ووعيده . بذل
رجلا ملكياً فدّى للجمهورية . أراد من ذلك أن يملأ قلوب
الدسائسين رعباً بطعنة نجلاء ليعدلوا عن مساعيهم
وكانت الوساطة التي استعملها لأدراك غايته شديدة قاسية
ولكنه أدرك الغرض الذي توخاه . ومن ذلك الحين انقطعت
الدسائس وعدلوا عن محاولة قتله . وفي ١٨ مايو من السنة نفسها
نادى بنفسه امبراطوراً على فرنسا

وبعد المجاهرة بامبراطوريته بايام قليلة بدى بمحاكمة المتهمين
محاكمة علنية وحضرها فوشه بصفته وزير البوليس وكان سلقه
رينيه رئيس المحكمة . فحكم على ١٧ منهم بالاعدام وعلى الآخرين
بالسجن سنوات كثيرة وبين هؤلاء الجنرال هورو . على أن الرأي
العام جاهر بالميل الى هذا القائد الشجاع مجاهرة صريحة فرأت
الحكومة أن من الحكمة مراعاة ميول الأمة ولذلك أفرج عنه
فسافر الى الحدود الاسبانية ومنها الى اميركا الشمالية

وفي ٢٥ يونيو اعدموا ١٢ من المحكوم عليهم وفي مقدمتهم
جورج واستبدل حكم الاعدام على خمسة آخرين بالنفي المؤبد

وراقبت جوزفين هذه الأحوال بقلق وحزن لان نفوذها على الامبراطور بدأ يزول ولم تنفع الآن توسلاتها ودموعها فلم تتمكن من انقاذ الدوق دأنجين وقالت للمسيو بورين رئيس سكرتارية الامبراطور ودموعها جارية :

— لند اعيتني الحيلة فخرت كل وسيلة وأردت بأية واسطة ان احوله عن عزمه هذا ولم يكن قد اطعنني على ما ينويه ولكنك تعلم كيف وقفت على دماصده . ولما سألته اعترف بما يريد ولكنه لم يصنع لتوسلاتي . فتعلقت به وتوسلت جاثية عند قدميه فقال لي : « لا تتعزني لما لا يعنيك » ودفعني عنه بعنف قائلاً : « ليست هذه المسائل خاصة بالنساء دعيني وشأني » فاضطرت الى السكوت ولم أتمكن من دفع القضاء . ولكن بعد أن انتضى الأمر تأثر بونابرت كثيراً وبقي بضعة ايام صامتاً حزيناً مفكراً ولم يعد يوجئني متى رأني ابكي (١)

وانقضت الأيام السعيدة وتلتها ايام البؤس والشقاء لجوزفين فهجرها نابوليون وطلقها طلاقه المشهور في التاريخ فقامت ٤ سنوات مهجورة مطلقة تنذب حظها . فلما أفل نجم نابوليون وفقد عرشه وتاجه واكره على هجر فرنسا كانت النكبة شديدة على جوزفين فماتت

كذلك تلاشت الامبراطورية واستدعي الكونت دي ليل الى فرنسا . دعاه ملوك أوروبا وليس الأمة الفرنسية . فاستعاد دولة البوربون وتولى عرش فرنسا باسم الملك لويس الثامن عشر

فاين كان لويس السابع عشر ابن ماري انتوانيت كل هذا الزمان ؟

اجز وعده جوزفين كما ينسا في الفصل السابق وذهب الى الغابات القديمة والشعوب الفطرية في أقصى اميركا فجعلوه ملكاً عليهم واليسوه تاجاً من الريش ^(١) ولبت بينهم سنوات مكرماً مالكا محبوباً ثم جذبه الشوق الى وطنه فذهب الى البرازيل في مأمورية لمصلحة شعبه واغتنم فرصة سفره هذه فعقد اتفاقاً مع دون جوان البرازيلي وقرر أن لا يعود الى القبائل المذكورة . وكان قد حفظ أوراقه الثمينة التي تثبت شخصيته فلما اطلع عليها دون جوان رحب به وأكرمه كثيراً . ومنه اطلع على ما جرى في فرنسا اثناء غيابه وعند اول فرصة عاد الى أوربا ووصل الى باريس في أواسط سنة ١٨١٦

فاستقبله البرنس دي كوندى الذى أصبح الان دوق دى بوربون وعطف عليه وأكرمه وفادته ولكنه جاهر بأسفه العظيم لانه جاء متأخراً فلا أمل في عرض قضيته . لان الكونت دى بروفانس كان الان ملك فرنسا باسم لويس الثامن عشر فهو لا يتنازل عن العرش لابن ماري انتوانيت

بل كان أسهل من ذلك ان يعامل لويس معاملة افك دعي أو مختل الشعور . وكان لا يزال يدعى بارون ريتشموند وعشياً ارسل التحارير الى عمه الملك وشقيقته دوقة انجوليم يلتمس منها أن يسمح له بمقابلتهما فلم يحصل على رد أو أقل التفات لان اجابة

طلبه تستوجب عزل لويس الثامن عشر وحرمان دوق دي باري . ابن الدوقة من ولاية العهد . اعتقدوا ان لويس السابع عشر قد مات فلا سبيل الى احيائه . وادرك هذه الحقائق المحزنة فاستولى عليه حزن شديد ولكنه صبر على ما أصابه وأبى ان يموت بل اراد ان يعيش ليلقي الرعب دائماً في قلوب أقاربه القساة

ولكنه اضطر ان يعيش معيشة رحالة مضطرب كثير الخذر من اعتداء اعدائه فالج عليه البرنس دى كوندى ان يصون نفسه من الاعتداء الذى تكرر على شخصه وتوسل اليه با كياً أن يزيل فرنسا فأجابه الى ما طلب وسافر فمضى نحو سنتين في أسيا وأفريقيا ثم عاد الى أوربا فلما وصل الى المواني الايطالية قبض عليه سنة ١٨١٨ في (مانتوا) اجابة لطلب سفير النمسا والقوه في سجن مدينة (ميلان)

فمضى هذا الامير التاسع سبع سنوات في سجن نمساوي . دون ان ينظر في قضيته او يعرف سبب سجنه . قضى سبع سنوات في ظلمة وانفراد وشقاء . الا ان ابن ماري انتوانيت كان قد الف الشقاء والاضطهاد صغيراً إذ كان في عهدة سجنانه سيمون فصبر على مصابه ولقي في سجنه هذا عطفاً وعناية من السجنانيين الذين رثوا لحاله ورقوا بلواه . كانوا يحسنون معاملته « ملك فرنسا »

وحدث ذات يوم وهو في (زرانة) سجنه انه سمع من الزرانة المجاورة رجلاً يغني بصوت رخيم لطيف دوراً شعرياً كان لويس نفسه قد نظمه وكتبه على جدار الزرانة المجاورة لما كان مسجوناً

فيها . ذلك الصوت صوت (سلفيو بيليكو) . وقد وصف مؤلف
« لي مي بريجيوني » تعارفهما قال :

« نقلوا فراشي الى الزنانة الجديدة التي عينوها لي وحالما
انصرف المقتش وبتيمت وحدي صرفت همي الى فحص الجدران
فرأيت كلمات مكتوبة بفلم رصاص او طباشير او آلة حادة . رسمها
الذين تقدموني في هذا المكان . وعثرت ايضاً على بيتين من الشعر
الفرنسوي الجميل واتأسف انني لم انقلهما . على انني اخذت
انشدهما على لحن موسيقي كنت قد وضعته بعنوان « المجدلية
التاعسة » واذا بصوت رجل في الزنانة المجاورة يغني دوراً آخر
فلما فرع من غنائه ناديت « برافو » فاجابني بتحية لطيفة وقال :

— هل انت فرنسوى

— بل انا تلياني واسمي « سيلفيو بيليكو »

— اذا انت مؤلف « فرانسيسكا داريميني »

— نعم انا هو

ثم عقب ذلك تبادل التحيمة والمجاملات واطهر اسفه لأنني
مسجون وسألني في أى مكان من ايطاليا كانت ولادتي فلما
اخبرته انني ولدت في (سالوزو) من مقاطعة (بيد مونت) اثنى
على قومي وخص بالمديح (بودوني) وهو كتي شهير وصاحب
المطبعة الوطنية في (بارما) وكان مديحه وجيزاً دل على عقل راجح
قلات له :

— والآن اسمح لي ان اسألك من انت

— لقد كنت تاشد شعراً لي

— وهل هذا الشعر المكتوب على الجدار من قلمك

— نعم

— إذا أنت . . .

— دوق دي نورماندي

ثم سمعت وقع قدمي السجن فلزمت السكوت وبعد قليل استأنفت الحديث فلما سألته اذا كان هو لويس السابع عشر اجاب بالايجاب وأخذ يطعن بحدة على لويس الثامن عشر عمه الذي اختلس حقوقه

فتوسلت اليه ان يشرح لي تاريخه مختصراً ففعل وذكر التفاصيل المتعلقة بحياة لويس السابع عشر والتي كنت قد وقفت على قسم منها وذكر كيف سجنوه عند سيمون الاسكاف وكيف اكرهه هذا ان يضع توقيععه على شهادة مهينة لشرف والدته وغير ذلك . ثم شرح لي كيفية فراره ونجاته وسفره الى اميركا ورجوعه للمطالبة بعرش آبائه وكيف قبضوا عليه في (مانتوا)

ووصف حوادث حياته بصراحة وحسن بيان وكانت جميع حوادث الثورة الفرنسية حاضرة في ذهنه وتكلم بفصاحة طبيعية تتخللها نكات في محلها وكان في تعبيراته بعض الاحيان صفة عسكرية ولكنه كان اديب اللهجة مما دل على انه عاش مع طبقة راقية من الناس . فقلت له :

— أسمح لي ان اكون صديقك فلا تتخاطب بالاللقاب ؟

— ذلك ما اريده . ان البؤس التقى علي دروسه فتعلمت ان

لا احفل بالألقاب العالمية . وصدقني انني افتخر برجولتي
لا بأنني ملك

وعلى اثر ذلك كنا نتحدث صباح كل يوم ومساءه . وعرفت
فيه نفساً شريفة جميلة تميل الى كل حسن . عرف كيف يكتسب
القلوب حتى ان حرس السجن كانوا يعطفون عليه . وقال لي احد
السجانين عند قدومه من زنزانه جاري :

— آمالي عظيمة انه يجعلني البواب الأول متى صار ملكاً .
فقد تجاسرت وطلبت هذه الوظيفة منه

وقد تمكنت من مشاهدته بفضل عطف السجان وميله اليه .
ذلك انهم لما اخرجوني للمحاكمة مررت بزنزانه ففتحوا بابها
لأتمكن من مشاهدة صديقي العظيم . كان ربح القوام بين ٤٠
و ٥٥ من العمر وله سحنة البوربون^(١)

بعد ان قضى لويس السابع عشر سبع سنوات في سجنه أطلق
سراحه على اثر وفاة لويس الثامن عشر ولكن خلفه ملك آخر فان
الكونت دارتواز تسنم العرش باسم شارل العاشر

فانتقل البارون ريتشموند باحزانه وفشله الى سويسرا ولكن
لما تنازل شارل العاشر عن الملك سنة ١٨٣٠ عاد ابن ماري انتوانيت
من منفاه وعزلته وأصدر منشوراً للامة الفرنسية مطالباً بحقوقه .
فلم يحفل أحد بطلبه الذي جاء اثناء صليل السيوف ودوي المدافع

(١) لي مي بريجيوني «تأليف سيلفيو بيليكو» صفحة ٥١ وما بعدها

وصولة الثورة . فلم يكن لديه جند ولا سلاح بينما توفرت لدى دوق دورليان - لويس فيليب - جميع اسباب النجاح والفوز وتمكن بقوة انصاره ووفرة امواله من تولي العرش باسم لويس فيليب - في ١٩ اغسطس سنة ١٨٣٠

ولم يبق الآن لبارون ريتشموند سليل الملوك إلا صديق فرد يحسن استقباله نريد به دوق دي بوربون كوندي الذي انقذه بماله ونقوده من السجن سيمون واعتنى به بعد فراره . وكان الدوق الآن شيخاً في الثمانين من عمره

حدث بعد تولي لويس فيليب عرش فرنسا بأسابيع ان الدوق بوربون استقبل في قصره في سان ليو رجلاً لم يعرفه احد ولكنه قال انه البارون دي ريتشموند

خرج الدوق الى الفسحة لاستقبال زائره واستقبله بكل تكريم واحترام . وعاد به الى غرفته الخاصة . وهناك جرى للرجلين حديث طويل . وكان كاتم اسرار الدوق جالساً في المكتبة المجاورة فسمع سيده الدوق يقول بصوت مرتجف :

— مولاي . أتوسل اليك ان تغفر لي . فقد كانت الأحوال والظروف أقوى من ارادتي . مولاي لا تحكم عليّ . واغفر لي ثم ان كاتم الاسرار سمع الجواب بصوت الغاضب :

— لا . انني لا أغفر لك . لانك أسأت التصرف مع الابن كما أسأت قبلاً مع الوالدة . انك خنت اليمين التي اقسمتها لي يوماً ما . فانا أمضي عنك . ولعلّ الله يرني لك ويعفو عنك . وحذار ان

يعاقبك على خيانتك لي . لقد أقسمت لي أن لا تعترف بملك سواي
ومع ذلك فانك أقسمت يمين الطاعة للملك الثالث . فأودعك . والله
يقيك . وربما اجتمعنا بعد الآن في عالم افضل وهناك تعطي حساباً
امام القاضي الاعظم الذي لا يخدعه احد . كن سعيداً ورحم الله
الموتى ^(١)

ثم سمع كاتم الاسرار الباب يقفل بعنف وساد السكوت
وبعد مضي ساعة دخل مقصورة الدوق اذ طال سكوته واذا
به جالس على كرسيه اصفر الوجه ينظر باضطراب الى الباب الذي
انصرف منه الضيف

وظل الدوق على تلك الحال بقية النهار وفي الليلة التالية سمعه
خادمه الخاص يصلي ويكي . وفي صباح اليوم التالي أي ٢٧
أوغسطس سنة ١٨٣٠ دخل الخادم مقصورة مولاه فوجده
يابساً وقد مات . وذلك ان الدوق شنق نفسه في نافذة مقصورته

* * *

كذلك مات آخر من عرف لويس السابع عشر وماتت أيضاً
شقيقته دوقة دانبجوليم . ولكنها أرسلت تحيتها بعد وفاتها . ذلك
أنها كانت قد أمرت ان تدفع كمية كبيرة من المال كل سنة الى
بارون ريتشموند وذاع انها أرادت قبل وفاتها أن تستدعيه الى
فراش مرضها وتعترف به الا ان كاهن اعترفها نصيح لها ان لا تفعل
لان اعترفها به يوجد شقاقاً جديداً بين البوربون ويسهل لهزى

(١) كلمات بارون ريتشموند . « مذكرات دوق دي نورمندي »

الخامس الادعاء بما يطالب به لويس السابع عشر
على أن دوق نورماندى أو بارون ريتشموند لم يفتأ مطالباً
بحقوقه حتى رأى الملك لويس فيليب من اصالة الرأى لمصلحته
الذاتية ان يقبض عليه ويحاكمه . فطالت التحقيقات الابتدائية
مدة ١٥ شهراً ثم حاكموه بتهمة التعرض لسلامة الدولة

ونشرت تفاصيل المحاكمة في « غازيت دى تريبونو » في ٣
و٤ وه نوفمبر سنة ١٨٣٤ فاقبل الناس أفواجاً والمستغرب ان
جمهوراً كبيراً من الناس حضروا ليشهدوا ان الدوق نورماندى
والبارون ريتشموند هما واحد وأنه ابن لويس السادس عشر .
وحضر المتهم فكان في موقف الاتهام جريئاً عالي الرأس
ولما اتهمه النائب العمومي باسم الحكومة انه اختلس اسماً
ليس له أجابه بسكينة وقال :

— ايها السادة اذا لم أكن لويس السابع عشر فهل ليكم ان
تفيدوني من أنا ؟

وعجز الجميع من الرد على هذا السؤال . الا ان العدد الغفير
من الحاضرين جاءوا ليشهدوا انه ملكهم وأنه هو الغلام الذي
أنقذ من سجن (التامبل)

بل ان رئيس المحكمة نفسه كان على رأيه فاما ختم خطابه
الموجه الى المحكمة قال :

— ايها السادة . من هو المتهم الواقف امامكم الآن ؟ ما اسمه وما
نسبه ؟ وما هي عائلته ؟ ما هي سوابقه وتاريخه ؟ أهو آلة في يد
أعداء فرنسا أم هو بالاكثر تاعس منكود الحظ نجاباً عجوبة من

مخاوف الثورة الدموية فهو الان لا اسم له ولا أين يضع رأسه
على ان جماعة المحكمين لم يطلب منهم الفصل في هذا الأمر . بل
طلب منهم فقط ان يردوا على السؤال الذي اتى عليهم وهو هل
المتهم مدين بأمر دسيسة على العرش وكان جوابهم بالايجاب
فحكم على المتهم بالحبس ١٢ سنة

ونقل دوق نورماندي أو الملك لويس شارل الى سجن (سان
بيلاجي) ولكن في السنة الثانية بمساعدة بعض ذوى النفوذ من
أصدقائه أطلق سراحه فذهب الى سويسرا وأقام زمناً
ثم جاءت سنة ١٨٤٨ سنة الثورات التي أكرهت الملك لويس
فيليب على الفرار الى انجلترا فلم يعد الى عرش فرنسا

واذ ذاك برز لويس شارل مرة اخرى من وحدته ومنفاه .
جاء هذه المرة ومعه جمهور من الأعوان . التف حوله فريق من
أنصاره الاغنياء واستمالوا اليهم جريدة اسمها « لا تفليكسييل »
فدافعت عن حقوق دوق نورماندي وجاهرت بلاد (لا فاندى)
بالانتماء اليه ونادوا به ملكاً واستدعوه اليهم . فلما عزم على السفر
الى انصاره الامناء اتى الله يده عليه فاقعده . اذ أصيب بالفالج .
فلما شفي تلاشت قواه العقلية نوعاً ما . وتحول المطالب بالعرش
من رجل قوي ناري الى راهب وديع ورع يصوم ويصلي فذهب
الى رومية لمقابلة البابا بيوس التاسع الذي حله من خطاياه

قابل البابا دوق نورماندي في (جاتيا) يوم ٢٠ فبراير سنة ١٨٤٩
وجرى لهما حديث سري طويل فلما انصرف لويس شارل من
حضره البابا كان رجلاً هادئاً تقياً باسمه . لم ينكر أصله الشريف

ولكنه لم يبق له مطمع في العودة الى عرش آبائه وما لبث ان ازوى عن العالم فاقتصر على المعيشة مع بعض انصاره الشرفاء وكانوا يخاطبونه بلفظة (مولاي) وفي ذلك الحين كتب الى احد أصدقائه ما يأتي :

« تسألني ماذا أريد . وما هي خاتمة مساعيَّ وجهادي الذي واصلته نحو ٥٠ سنة حتى الآن . فإليك الجواب . ارجو انك لا تظن انني لا أزال عازماً على تسلم عرش فرنسا . ولو انني فعلت لكان عملي ضاراً لي ولا شك يكون أكثر ضرراً لفرنسا . فيصدق القائل انني واياها نستأهل ما يحل بنا من النكد . كما انني اقل ميلاً الان الى ما احصله من الثروة والجاه بواسطة الاعتراف بي . انت تعلم ان القليل التافه يكفي لمعاشي وهذا القليل متوفر لي . فماذا اطلب فوق هذا ؟ هل أريد ان انتقم لنفسي ؟ لا يا صديقي . فلقد وصلت الى سن بردت فيه الدماء التي تجري في عروقي فاجد الان لذة في العفو والغفران . اذاً ما الذي اطلبه ؟ ولماذا اسعى ؟ السبب في ذلك ايها الصديق هو انني ارغب قبل موتي ان اقنع جميع الذين صدقوني انني لست الافاق الدعي السياسي ولكنني « يتيم التامبل » الملكي المدين لاولئك الاصدقاء بصدقاتهم ولهم مني الشكر »

وقد تحققت امانيه . فان الانصار الذين احاطوا به صدقوه . ولما مات بكوه وندبوه باعتبار انه مولاهم الملك ونقلوه الى ضريحه باحة وكرامة في الليل . مشى وراء نعشه نحو ٥٠ من انصاره

يتقدمهم كاهن واحد ودفنوه في مدفن الكنيسة في فيلفرانش
Villefranche ونقشوا على ضريحه ما يأتي :

هنا يرتاح

لويس شارل ملك فرنسا

ولد في فرساييل في ٢٧ مارس سنة ١٧٨٥

ومات في قصر « فورينو » في ١٠ اغسطس سنة ١٨٥٨

